الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي العقيد آكلي محند أولحاج بالبويرة

معهد اللغات والأدب العربي

نزعة التّمرد عند مفدي زكريا
-اللّهب المقدس أنموذج-

مذكرة ليسانس في اللّغة العربية وآدابها

إعداد الطالبتين:

- العارفي زينب السعدي

- بوشارب سمية نزهة

إشراف الأستاذ:

- جموعي

السنة الجامعية: **2009 - 2010**

في نهاية مشواري الدراسي اهدي ثمرة جهدي هذا :

إلي التي ربتني، وأحسنت تربيتي، إلي التي تحمّلت هموم صغري وكافحه لأجلي، إلي من جعلت تحت قدميها الجنان، إلي من وجدت في حضنها المدفئ والحنان، إلي من قاسمتني الأفراح و الأحزان...

أمـــــــــــــــي

إلي الذي تلقّيت الكتابة و القراءة على يديه إلي الذي كان لي سندا في كامل مشواري الدراسي فكان أستاذي الأول ومثلي الأعلى... أبـــــــــــــــي

إلي التي ساهمت في تربيتي، و جعلت من حنانها مأوى يضمني ... جدتـــــــــي

إلي أجمل شيء احمله في قلبي خطيبي و رفيق دربي وعمري و الذي ساهم في عملي هذا... عبـــد القـــــادر

إلي المقـــربين إلي قلـــــبي

شقيقتي الوحيدة شيماء : العنيدة الطيبة

شقيقي صهيب : الذكي الصادق

شقيقي حسام : المنرفز الحنو ن

شقيقي إبراهيم : المشاكس المدلل

خالاتي : مليكه، فتحية و بالأخص حياة

أخوالي : سعيد، جمال، رابح، أمين

أبناء وبنات خالاتي و خالي : شهرزاد، نسرين، نبيل، إسحاق و الكتكوت الوسيم عبد الحليم (عبدو)

و إلي كل صديقاتي: من شاركتني عملي هذا زينب و صديقة شبابي هجيرة، وسام، تنينة، نادية سهياة، *لبنى، ياسمين، سلوى، عائشة، نجلاء، شهرة، نادية، تالية دون أن أنسى المشرف على هذا العمل الأستاذ جموعي.*

- سميـــــــــــة-

إلى بحر الحنان والحب، إلى الصدر الدافئ، إليك أمي يا أعلى قمة في وجداني

لك أبي كل تقديري واحترامي يازهر فخري،أهديك عملي وجهد ي وخلاصة نتاجي وطاعتي.

إليك عائلـــــــتي الكريمة.

إلى زوجي محمـــــد الذي له أكبر الفضل في رعاية هذا العمل.

إلى أبي الروحي بلقا سم معمري، وأمي الثانية نجوى.

إلى صديقاتي:نادية عبدات،سهام عيسا ني،نادية سبتي،سمية بوشارب،مباركة معمري.

وإلى كل قلب قريب من قلبي.

إلى كل من دب في الأرض، فقال أشهد أن للإله إلا الله والله ربي.

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي.

-زينـــــــب-

مقـــدمة

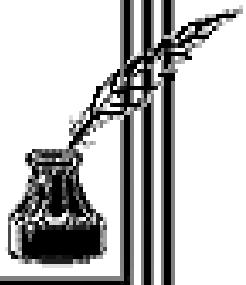

مقدمــة:

كلّما تقدمنا في الزمن تأكد لنا أن الشعر عالم كثيف الدلالة ،وتأكد لنا أيضا أن الشاعر يحتل الريادة في عشق الجمال والقدرة على تصويره كما له القدرة على تصوير الواقع ومحاولة التمرد عليه،والشعر الجزائري في فترة الاستعمار وقبيل الاستقلال،حين كان الشاعر الجزائري يعاني الأمرين، أرض مسلوبة وكبت خانق،عرف نزعة التمرد نتيجة للظروف التي فرضها المستعمِر.

والتمرد ليس ظاهرة جديدة على الأدب الحديث، بل كان موجوداً في الشعر العربي القديم، حيث وُجد مع وجود الإنسان، لكنه لم يتعد التمرد على السلطة والعادات. أما في العصر الحديث فقد اتسع نطاق التمرد فشمل بالإضافة إلى التمرد على السلطة والعادات الاجتماعية التمرد على رجال الدين، والتمرد على كل قديم في الأدب ومحاولة التجديد.

ولعل العصر الحديث بما ساده من حروب طاحنة واستعمار غاشم وتكالب مقيت على أوصال الأمة الإسلامية يجعلنا نجزم بأن التمرد حقيقة متأصلة في الشعر العربي تستحق منا الكشف عنها ومحاولة تلمس خيوطها.وبما أن الجزائر كبلد عربي محوري تعرض لأبشع أنواع الظلم،والاضطهاد ولفترة زمنية جد طويلة ،فإن ملامح نزعة التمرد لدى شعرائها تبدو أكثر وضوحا وجلاءاً.

وهذا رائد شعرائها مفدي زكرياء يجسد نزعة التمرد في ديوانه اللهب المقدس ،إن عنوان الديوان في حد ذاته يحمل من التمرد ما لا يخفى ! فاللهب هو ثورة نوفمبر المجيدة ليس كباقي اللهب إنه لهب مقدس...

والإشكالية المطروحة هي:هل التمرد لازمة من لوازم الشاعر؟وكيف تجلى التمرد في ديوان مفدي زكرياء؟.هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عنها وتوضيحها من خلال دراستنا هذه.

ولعل المنهج الوصفي التحليلي هو الأجدر لتحقيق هذه الغايات.

وتم تقسيم الدراسة إلى تمهيد،وفصلين تسبقهما المقدمة،تناولنا في التمهيد:التجربة الشعرية عند مفدي،وخُصص الفصل الأول لمفهوم التمرد،أشكاله،وعلاقته بالاغتراب الروحي.أما الفصل الثاني،فمثل الجانب التطبيقي من البحث وتناولنا فيه،التمرد في اللهب المقدس حيث تطرقنا إلى الأشكال الفنية وتجربة التمرد،كما تناولنا تجليات التمرد من خلال اللغة الشعرية،وكذلك قراءة في المضامين الفكرية لشعر مفدي.وكانت الخاتمة خلاصة لما توصلنا إليه من نتائج.

ومن جملة الكتب المعتمدة في دراستنا هذه هي الكتب التي تناولت نزعة التمرد عند مفدي وعند غيره بالدراسة والتحليل،من بينها:التمرد والغربة في الشعر الجاهلي،لعبد القادر

زيدان.وكتاب شعر الثورة عند مفدي زكرياء ليحي الشيخ صالح ،وأطروحة دكتوراه لمحمد أحمد العزب موضوعها ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر.

أما الصعوبات التي واجهتنا أثناء إنجاز هذا البحث، فنذكر منها صعوبة جمع المادة.

تمـــــهيد

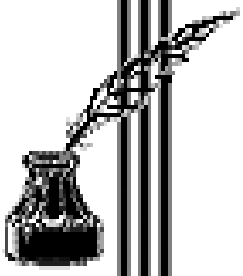

تمهيد:

إنّ الأدب الجزائري، خاصّة الشعر قد أصيب بركود شامل طوال القرن التّاسع عشر فلا نكاد نعثر في السبعين سنة الأولى للاحتلال إلاّ على أدب هزيل ركيك في جانبيه المضموني والشّكلي فهولا يعرف غير المدائح وقصائد المناسبات ميدانا له، ويبقى بعيدا عن المجتمع والسياسة ومعترك الحياة، ومع مطلع القرن الحالي عرفت الجزائر بداية نهضة فكريّة وأدبيّة ثقيلة الخطوات ولكنّها ثابتة، تجلّت في النشاط الصحفي المتطوّر باطراد، وفي إرسال البعثات الطّلابية إلى جامع الزيتونة بتونس، والقرويين بالمغرب وتوثيق الصلات بين الجزائر والمشرق العربي .

كما نلاحظ أنّ للنهضة الأدبية الجزائريّة علاقة وطيدة بالمشرق العربي دلت على مدى تعلق الجزائريين بعروبتهم وشعورهم القومي العميق، فبالرّغم من الحواجز الّتي وضعها الاستعمار بين الجزائر والمشرق العربي فإن الجزائريين كانوا دوما يتّجهون بأنظارهم نحو المشرق متتبعين أخبار نهضته الّتي قطعت أشواطا بالنسبة للجزائر، ومحاولين مشاركة إخوانهم فيها فالصحف المشرقية كانت تقرأ في الجزائر بشغف مع أنّها ممنوعة من قبل الاستعمار ولا تصل الجزائر إلاّ تهريبا، والصحف الجزائرية كانت تخصص جزءا كبيرا من أعمدتها لنشر الأدب المشرقي، وتتابع تطوره وأحداثه وتشارك في إثرائه بنصيب .

لكن بعد مجازر الثامن مايو الّتي خلفت أزيد من أربعين ألف جزائري، وبالرغم من صعوبة المحنة إلاّ أنّ هذه الكارثة أدّت بالشّعب الجزائري للنظر إلى ما أصابهم بمنظور خاص لأنّه لا أمل للتحرّر من غير سلاح . كما أنّ هذه المجزرة كانت الحافز الأسمى لإحياء الرّوح الوطنيّة وجعل الوحدة الهدف الرئيسي لكلّ جزائري يطمح في نيل الاستقلال، الشيء الّذي أبرز في أفق الجزائر ألحان الحرية والاستقلال وغيرها من الرّموز المقدّسة الّتي تجلت عند كافة أفراد الشّعب الجزائري نتاج التّطور الكفاحي الّذي كان يدنومن الهدف، وهذه الأخيرة (الرّموز) خلّفت ظهور عدد لا بأس به من الشعراء كالرّبيع بوشامة، وعبد الكريم العقون، وأحمد الغوالمي، وموسى الأحمدي، والأخضر السّائحي، لكن القسم الأوفر للقيادة الشعرية كان من نصيب محمد العيد وسحنون ومفدي زكريّاء الّذي واكب الثورة الجزائرية وسجّل بطولاتها ووقائعها حيث ألق الأضواء على ثورة الجزائر وكفاح الشّعب الجزائري للفت الأسماع والأنظار

وإذا كانت الثورة الجزائرية مدينة للشعر، فإنّ مفدي زكريّاء هومدين للثورة لأنّها ألهمته الرّوائع وفتحت له عوالم من الإبداع .

ومن هنا تتجلى الأهمية الخاصّة لشعر مفدي زكريّاء في حمل رسالة الجزائر إلى الإخوة الأشّقاء وإسماعه إياهم صوت ثورتها، وإذا تحدثنا عن التّجربة الشعرية لمفدي زكريّاء فإنّنا نجدّها تجربة مليئة بالفكر الثّوري، حيث كان مفدي صاحب شعور مرهف، ونفس تواقة طموحة إلى كلّ ما هو سام، بالإضافة إلى هذا إطّلاعهم على أمهات الكتب في اللّغة وآدابها، كما أنّه مطّلع على بحور الشعر وقواعد العروض .

وكان أوّل شعر يدخل به مفدي زكريّاء إلى مطلع الحياة الأدبيّة تلك القصيدة الّتي نظّمها في رثاء أضحية العيد وكانت بعنوان " كبش الفداء " فقال في مطلعها :

" لهفي على شاة لنا قيّدت للــذّبح وهي نـقية الأدران

استضعفوك فلذّ لحمك عندهم هلاّ استلذوا لحم ليث قـاني" [1]

ونجد بعدها أغلب شعر مفدي زكريّاء الثوري يندرج في إطار الشّعر الوطني الصّريح لكنّه ليس الغرض الوحيد الّذي عبّر فيه الشاعر عن ثوريته بل سخّر لها حتى الأغراض الذّاتية المحضة .

فالغزل عند مفدي كثير منه يمكن إدراجه في مجال "الغزل السياسي" الشائع لدى كثير من الشعراء الجزائريين، والّذي ظهر في الشعر الجزائري مع مطلع القرن الحالي، واستمر حتى الخمسينيات، والّذي يتغزل فيه الشاعر ويعبر عن حرقته ولوعته، وأرقه الشديد وكل ذلك ليس لحبيبة أو خليلة، وإنّما للوطن أو لقضية وطنية مثل الحريّة .

وهذا النّوع من الشعر اتّخذ عند مفدي شكلين يختلفان في درجة إقترابهما من الغزل الحقيقي (التغزّل بالمرأة) .

الشّكل الأوّل : فهو تعبير عن حب الجزائر والتعلق الشديد بها والإستّعداد للتّضحية في سبيلها بتصويرها امرأة ملكت على الشاعر لبّه، فهام بها ويقول الشاعر :

"رسول الهوى بلّغ سلامي إلى سلمـى وعاط حميا ثغرها البـاسم الألـمى
وناج هواها علّ في الغيب رحـمة تدارك هذا القلب أن ينقـض هما
فكم تحت هذا القلب من لاعج الهوى وكم بين هذا الجسم من أضلع كلمى" [2]

إلى أن يقول:

بلادي ألا عطـف عـليّ بنظـرة حنـانيك ما هذا السـلوولا إثما
ومذ فتحت عيني المدامع أبصرت هواك فلا عـار عليها ولا لوما " [3]

" أمّا الشّكـل الثـاني من هذا الغـزل عند مفدي، فهو غزل حقيقي (غزل المرأة) لكنّه ليس غزلا خالصا لها، بل ملتحم بالوطنيّة، فيه عاطفة حب نحو الأنثى لكنّها ممتزجة بعاطفة حب الوطن[4] . بمعنى أنّه يتغزّل بصورة المرأة لكن ليس لمجرد أنوثتها بل لجزائريتها وأنّ ما يغريه في حبيبته كونها بنت الجزائر . يقول مفدي في هدا النوع من الغزل :

"سلوى حديثك يا سلوى يباغمني والطرف يختان لا يدري به الحدق
أنافسك الطهر كالصهباء تغمرني دفئا ويسكرني من فرعكي العـرق
سمراء خدرها الباري وصورها إن أرتشف ثغرها يفـتك بي الأرق " [5]

هنا نلاحظ أنّه غزل حقيقي يجسد فيه عشقه لحبيبته وهو النّوع الأوّل إلى أن يقول:

" يا لائمي في هـواها إنها قـبس من الجـزائر والأمـثال تنطبـق
بنت الجزائر أهوى فيك طلعتـها فكل ما فيك من أوصـافها خلـق " [6]

فحبيبة مفدي هي مرآة عاكسة لوجه الجزائر، وبالتّالي فالجزائر هي الهدف الأسّاسي من خلال هذا الغزل . ونشير إلى أنّ الشّكل الأوّل عاش عند الشاعر من بداية إنتاجه الشّعري في العشرينات حتى اندثر ليحلّ محلّه الشّكل الثاني في الخمسينات، لكن لم يكن الشّكل الثاني إلاّ تطورا للشّكل الأوّل .

2- الرّثاء : لمفدي قصائد كثيرة في غرض الرّثاء لكنّها هي الأخرى من صميم الشّعر الوطني الثوري وذلك لسببين، الأوّل : لأنّه كان يرثي الشهداء الّذين دفعوا حياتهم ثمنا للحرّية، والثاني: أنّه كان ينظر لهؤلاء الشهداء على أنّهم خالدون لم يموتوا. عكس الرّثاء التقليدي الّذي تغلب عليه عاطفة التفجّع والتحسّر، في حين نجد تغمره إلى جانب عاطفة الحزن على الفراق ولوعته عاطفة

---

[1]-حواس بري، شعر مفدي زكرياء، دراسة وتقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر 1994، ص 33.

2- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، رسالة ماجيستير، دار البعث، ط1، الجزائر 1987 .

[3] –المرجع السابق، ص67

[4] - يحي الشيخ صالح،شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص66

[5] - مفدي زكرياء، اللهب المقدس، نشر وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ط2، الجزائر 1973 ص26

[6] - المصدر السابق، ص 26

الرضا والغبطة . يقول مفدي زكريّاء في ديوانه " اللّهب المقدّس " يوم إعدام أوّل شهيد بسجن بربروس أحمد زبانا :

"يا زبانـا أبلــغ رفـاقك عنّا في السمـوات قد حفظـنا العهودا "[7]

ويقول كدلك على لسان أحمد زبانا :

"واقضّ يا موت في ما أنت قـاض أنا راض إن عـاش شعبي سعـيدا

أنا إن مت فالجــزائر تحــيا حــرّة مستقــلة لــن تبيـدا " [8]

نلاحظ أنّ هدا الرّثاء مليء بالحماسة والقوّة في حين نرى في الرّثاء التقليدي عاطفة الضّعف والإنهيار .

3- المدح : " لمفدي نوعان من المدح الأوّل مدح عادي قاله بدافع الصداقة والّتقدير، ممثلا في مدائحه للرئيس التّونسي لحبيب بورقيبة، وللملك المغربي عندما كان يعيش في تونس ثم المغرب " .[9] وكان هذا المدح ممزوجا بالرّوح الوطنية .

إنّ الجـزائر أمّـة عــربيّة تسعى إلى استقلالها وتجاري

بارك – فديتك – يا محمد سعيها وجهادها واخلـد مع الأنصـار" [10]

" و لمفدي رأي في شعره هذا، فهو يرى أنّه ليس من قبيل المدح التقليدي وإنّما هو تقدير للمسؤولين العرب على استقامتهم وكفاحهم في سبيل شعوبهم " .[11] حيث يقول في ديوانه اللّهب المقدّس في هذا الصدد :

وقالوا مدحت المـالكين أجبتهـم هل المدح في غير المناجيد من شأني

إذا ما استقام المـالكون مدحتـهم وصغت مديحي من قـواعد إيماني

ولولا كفـاح ما مـدحت محمدا ولا جئت بالآيات في الحسن الثـاني . [12]

فهذا المدح بالنسبة لمفدي هو اعتراف بالجميل لهؤلاء الرؤساء الّذين يضحون من أجل شعوبهم.

"أمّا النّوع الثاني من المدح عند مفدي فهو مدح يطغى عليه الطابع الثوري لأنّ الشاعر فيه لا يولي اهتماما إلاّ للقضية الوطنية فهي مقياسه الأول. " [13]

ويقول في هذا الصدد:

أسمـع الشعــب للحـياة دويـا فهو ما انفك مغرما بالرقاد

والّتي من نهضة الشعوب دروسا لنفـوس أسيـرة الأحـقاد

عليـها نفـحة من المـلإ الأعلى بها تنقضي عهود السـواد. [14]

ويتّضح لنا ممّا سبق أنّ المدح عند مفدي قبل وبعد الثورة لا يكاد يختلف فهو تمجيد للوطنيين وتخليد لأعمالهم وهو النّوع الّذي يصدق عليه أنّه. (الذكر الجميل) كما يسميه الشاعر.

شعر الطّبيعة: المتصفح لنتاج الشاعر يرى أنّ شعره منذ بداية العشرينات إلى غاية الخمسينات

---

[7] - المصدر السابق، ص11

[8] -المصدر السابق، ص10

[9] يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص72

[10] - المرجع السابق، ص 77

3-المرجع السابق،ص72

[4] - مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص 72

[5] - يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص 75

[6] - المرجع السابق، ص75

خال تماما من وصف الطّبيعة، فالطّبيعة عنده وليدة ثورة نوفمبر لا غير.
فقد تغنى مفدي بطبيعة الجزائر وطبيعة الوطن العربي ولا نجده يفرد قصائده لوصف الطّبيعةوإنّما ورد ذلك خلال تناوله الثورة " ولذلك نجد وجه تلك الطّبيعة حمل من ملامح الثورة الشيء الكثير، فهي عند مفدي ليست رومانسية ولا تغري بالإخلاء إليها والتمرّغ في أحضانها، وإنّما هي طبيعة حية ثائرة شأن الإنسان الجزائري، وكأن لم تخلق إلا لتقوم بوظيفتها في المقاومة والكفاح. " [15]
يقول في اللّهب المقدّس:

أرض الجزائر والسماء تحالفا فاختلط حلفهما النجيع الأحمر
والأطلس الجبّار بثّ قراره فاندك منه الأطلس المتجبر. [16]

هنا نراه يتحدّث عن جبال الأطلس الجبّار، وانهزام الحلف الأطلسي أمامه، فالطّبيعة ساهمت في الثورة وفي النّصر كما يرى مفدي زكريّاء.
وللنشيد عند مفدي زكريّا قيمة خاصة ودورا بارزا متفرد، وليس من المبالغة في شيء أن يقول محمد عبد الغني حسن : " لو كنت من الّذين يضعون الألقاب أو يصنعونها لأضفيت على الأستاذ مفدي زكريّاء لقب (شاعر الأناشيد.) لكثرة ما وضع من النشيد الرّسمي في المناسبات المختلفة وللهيئات المختلفة. " [17] .
وأن يذهب عبد الله الركيبي إلى أنّ " رائد هذا اللّون من الشعر: شعر الأناشيد دون منازع هو الشاعر مفدي زكريّاء "[18]. فهو صاحب النشيد الرّسمي للثورة الجزائرية (قسما) وصاحب التّحية الرّسمية للعلم لجزائري، وصاحب نشيد جيش التحرير الجزائري، وصاحب نشيد الشهداء حيث صدر الأمر من جبهة التحرير سنة 1956 م إلى المحكوم عليهم بالإعدام أن يردّدوه قبل الصعود إلى المقصلة مما يكسبه الصبغة الرسمية لفترة تاريخية معينة، وهو صاحب نشيد بربروس ونشيد بنت الجزائر. وصاحب النشيد الرّسمي للطّلاب الجزائريين والنشيد الرّسمي للإتّحاد العام للشّغالين الجزائريين ونشيد الإنطلاقة الوطنية الأولى، أي نشيد "حزب نجم شمال إفريقيا". هذا بالنسبة للجزائر وبالنسبة للمغرب العربي فله نشيد مؤتمر المصير بتونس، ونشيد الإتحاد القومي للنساء التونسيات ونشيد عيد الجلاء المغربي.
والنشيد يتحدث بلسان المجموعة لا بلسان الشاعر،ونشيد "قسما" كان ترجمانا حيا أمينا لإحساس الشّعب بثورته، وكان صدى لمشاعر الثّوار حقا، وإنّ الدّارس للشعر الجزائري عليه أن ينتبه إلى أن هذا النشيد هو التّعبير الحقيقي عن أمال الجزائر وعن خواطر وخلجات أبنائها، وبالتّالي فهو اللّسان الفصيح للثورة الجزائرية العارمة." [19].
وهذا الأخير (نشيد قسما) يتألف من أربعة مقاطع ولازمة تتكرّر عقب كل مقطع:

قسما بالنّازلات الماحقات والدّماء الزّكيات الطّاهرات
والبنود اللاّمعات الخافقات في الجبال الشّامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا، فاشهدوا، فاشهدوا

فالشاعر فاجأنا بقسم غريب حيث قسم بالقنابل النّازلة، والدّماء الطّاهرة، والبنود الخافقة على الجبال الشامخة.
وهكذا يتبّين لنا أنّ لنشيد الثورة لسان فصيح، فقد تحدث عن أسبابها وعن أهدافها ووسائلها، وعن تفكيرها في المستقبل وفي غير جيلها من الأجيال نتيجة الإيمان بالنصر.

---

[15] - يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص150
[16] - مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص 65
[17] - يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص 181-182
[18] - المرجع السابق، ص182.
[19] - يحي الشيخ صالح،شعر الثورة عند مفدي زكريا ،ص188.

وهكذا كان مفدي خادما للثورة الجزائرية بشعره، والشعر هو النّوع الأكثر استجابة للتّحولات الّتي تعبر عن حياة المجتمع من بين كافة الأنواع الأدبية الأخرى، فقد منح فرصة المشاركة المبكرة والمباشرة، ذلك أنه في بعض الحالات أو المراحل المختلفة للحركات الثورية يصبح الشعر كما يقول الدكتور عزّ الدّين إسماعيل:" أقرب أشكال التّعبير الأدبي وأنسبها، ففيها يصبح العمل الشعري جزءا من الشعر الثوري لا ينفصل عن حركة الجماهير الشعبية" [20] وهو بهذا يخلق المعادل الثقافي للكفاح المسلح، وهو نوع من الهجوم الثقافي للكفاح المسلح،المضاد لثقافة الإحتلال كما يقول أدونيس . [21]

الفصـــــــــــل الأول: ماهية التمرد

1- مفهوم التمرد

2- أشكال التمرد

3-علاقة التمرد بالاغتراب الروحي

---

[20] - عز الدين إسماعيل، الشعر في إطار العصر الثوري، دار القلم، بيروت 1974، ص79.
[21] -مفدي زكريا، اللهب المقدس،ص16.

I. مفهوم التمرّد:

أ- المفهوم اللّغوي : عندما نتصّفح مختلف المعاجم العربية نجد أنّ للتمرّد عدّة مدلولات أهمّها ما ورد في لسان العرب لإبن منظور :

- تمرّد : هذا البثق أي جاوز حدّ مثله وجمع المارد مردة، وجمع المريد، مرداء .

تمرّد : أقبل وعتا وتأويل المرود أن يبلغ الغاية آلتي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف .

ومرد على الشرّ وتمرّد : أي عتا وطغى، والمريد الخبيث المتمرّد الشرّير. [22]

أمّا عند الخليل بن أحمد الفراهدي فنجدّها تعني :

مرد : المرد : حمل الأراك، والمرد : دفعك السفينة بالمردى أي خشبة يدفع بها الملاّح السّفينة والفعل مرد يمرد مردا . ومراد حي في اليمن، ويقال : الأصل من نزار .

والمرادة : مصدر المارد، والمريد : من شياطين الإنسّ والجن، وقد تمرّد عليه أي عصى وإستعصى . ومرد على الشيء أي عتا وطغى، والتمراد: بيت صغير يجعل في بيوته الحمامة لمبيضه، فإذا كانت نسقا بعضها فوق بعض فهي التّماريد، وقد مردها صاحبها تمريدا وتِمرادا بالكسر والتَمراد : بالفتح اسم .

والتّمريد : تمليس الطّين والتّسوية كما مرد صرح سليمان عليه السلام .

وتمرّد: فلان زمانا ثم خرج وجهه وذلك أن يبقى حسنا أمرد . ورملةمرداء : لاتنبت شجرة إلاّ نبذا من بقول، أي قليلا، وهي صلبة الموطىء وإمرأة مرداء، لم يخلق لها إسب . [23]

وإذا تصّفحنا معجم متن اللّغة فإنّنا نلقاه يردّد نفس المعنى " مرد "، تطاول في المعاصي وتمرّد، عصى وعتا.[24]

ومدلول التمرّد باللّغة العربية فهوما يقابله باللّغة الفرنسية لفظ " Revolte " ويمكن القول بأنّ اللّفظ الفرنسي عرف تطّورا عبر سيرورة التاريخ . فإلى غاية القرن السابع عشر ظلّ هذا اللّفظ يؤدّي فكرة الخروج من الحرب، وذلك دون أن ينطوي هذا الخروج إلى اللجوء إلى العنف.

---

[22] - إبن منظور، لسان العرب، مادة " مرد "، المجلد الثالث عشر، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ص 49

[23] - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مادة " مرد " المجرد الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت ط 1، 2003، ص 132

[24] - أحمد رضا، متن اللغة، المعجم الخامس، مكتبة الحياة، لبنان ص 273

" أمّا اللّفظ في استعماله الحالي أي " التمرّد على ..." يفترض مثل هذا اللجوء إلى القوّة كما يؤدّي هذا اللّفظ معنى الرّفض والإستّنكار " .[25]

" وهكذا نجدّ كلمة " Rebellion " عصيان، من التمرّد "Révolte " وذلك لكونها تدلان على معنى العصيان، في حين نجد كلمة " Instrruction " انتفاظة تعني دائما معنى العصيان المسلح ضدّ السّلطة القائمة ." [26]

ب- المفهوم الإصطّلاحي : إنّ المدلول الإصطّلاحي للتمرّد أوسع مدى من المدلول اللّغوي ذلك أنّ المدلول الإصطّلاحي يعني الرّفض الكامل للوضع الإنساني، وفي هذا المعنى يقول كامو: " التمرّد هوالحركة الّتي يثور بها المرء على حاله وعلى الخليقة كلّها " .[27] وعند الحديث عن التمرّد لابدّ لنا من مقابلته بمفهوم آخر هوالثورة لأنّ الكثير يعتقد أنّه لا فرق بينهما. إنّ لفظ الثورة في الإستعمال القديم كان يؤدي معنى الغضب والهيجان ولكنّه تطّور وأخذ مفهوما آخر حيث أخذ بعدا تجريديا، فأ صبح يعني التّغيير الجذري والسّريع لنظام سيّاسي بأسره أولبنية إجتماعيّة ما، ويتم هذا التّغيير والتّحول بواسطة إرادة الجماهير العريضة، وفي هذا المعنى يقول جميل صليب إنّ الثورة يقوم بها الشّعب على حين أنّ قلب نظام الحكم يقوم به بعض رجال الدّولة وثمّة فرق آخر بين الأمرين وهوأنّ هدف الثورة هوتغيير النّظام السياسي أوالإجتماعي أوالإقتصادي وهدف الإنقلاب هومجرد إعادة توزيع السّلطة السياسيّة بين هيئات الحكم المختلفة .

من هذا القول يمكن أن نقول أنّ الثورة قد لا يصاحبها العنف، لكنّ التمرّد لا يتوخى العنف . في حين أنّ الثورة ذات أهداف واضحة وتنظيم محكم، عكس التمرّد الّذي لا يخضع لنظام معين في نظر – ألبير كامو– ويمكن القول كذلك أنّ التمرّد هوحالة سلبية ورفضية، أمّا الثورة فهي نظرة إيجابية تستهدف بناء نظام جديد .

ب -1- المفهوم السيّاسي : جاءت التّعريفات السياسية للتمرّد أغلبها تصب في مفهوم واحد وهوأنّ التمرّد : " شكل من أشكال المواجهة المسلّحة للنظام القائم من قبل العناصر المدنية أوالعسكرية، أوالإثنين معا وذلك لممارسة الضغط واالتأثير على النّظام للاستجابة لمصالح معينة لهذه القوى، وقد يكون هذا التمرّد طويل المدى فيصبح مقدمة لثورة قد تطيح بالنّظام برّمته."[28]

و يكاد يكون هناك إجماع بين كتّاب السياسة على أنّ مصطلح التمرّد إنّما يعبّر عن عدم الطّْْْاعة وتحد للسّلطة القائمة.

ب-2- التمرّد عند علماء الإجرام المحدّثين: " ينظر علماء الإجرام إلى المتمرّد باعتباره يؤلّف النموذج الحيّ الصادق للمجرم العقائدي حيث يتميز عن سواه بشعوره الصادق العميق بانّ الفعل الّذي إقترفه، إنّما هوأمر يمليه عليه ضميره ويأمره به، فهوجزء من رسالة التزم بها وإن خالفت أحكام القانون ويستمد شعوره بهذا الواجب من إيمانه بسلسلة معينة من القيم الّتي يعتبرها أسمى وأعلى من سلسلة القيم الّتي ترتكز عليها القواعد القانونية، وعلى هذا فإنّ علم الإجرام إنّما يدخل المتمرّد في عداد المجرمين العقائديين ويوصي بضرورة معالجة أوظاعهم معالجة تختلف عن سواهم من المجرمين العقائديين ."[29]

ب-3- **المفهوم الأدبي :** إذا رجعنا إلى التراث الشعري نجدّ عدّة حركات تمرّدية كانت تسعى إلى التحرّرمن قواعد القصيدة القديمة، فلقد كان أبونوّاس أوّل متمرّد على القصيدة العربية فسخر من بكاء المعاصريين له على بقايا الديار والأطلال، كما تمرّد أبوتمام وحاول أن يخرج على عمود

---

[25] محمد يحياتن، مفهوم التمرد عند ألبيركامو، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، ط2، ص18 -

[26] -المرجع السابق،ص19

[27] -المرجع السابق،ص19

[28] -المرجع السابق،ص21-22

[29] - محمود عمبد الله محمد خوالدة، علم نفس الإرهاب، دار الشروق، عمان ط1، 2005 ص37

الشعر وعلى طريقة القدامى في الصياغة، " ونواصل تتبع حركة الأدب بعد أبي تمام نجدها تهتز وتتجدد في بعض اللمحات عند شاعرين من شعراء القرن الرابع الهجري وهما أبوالطّيب المتّنبي وأبوالعلاء المعرّي، وحقّا فقد كان المعرّي متمرّدا على القصيدة القديمة وقد تمكن من إخراج الشّعر من دائرته القديمة الضيقة، دائرة العبث والفردية ." [30]

غير أنّ هذه الومضات لم تلبث إلا قليلا فقد كانت مؤقتة، وكان من الطبيعي أن تظل قسمات الرّكود جامدة لا تتغير ولا تتجدّد حتّى ظهرت حركات التحرّر (جماعة الدّيوان،أبولو المهجر) وثبات الإنعتاق من طغيان الجمود على الفكر والأدب، وقد كانت هذه الحركات أول دعات التجديد في الشعر العربي الحديث، واتجهت خطّة هؤلاء أول ما اتّجهت تربعا على عرش الشّعر التقليدي بعد حركة البعث الّتي قام بها البارودي، وذلك بنقد طريقتهم التقليدية نقدا تفصيليا عنيفا وقد هاجمت جماعة الدّيوان شعرهم وكانت لها أراء جديدة فيما يخص القصيدة العربية، فقد تمرّدوا على الشّكل القديم وخرجوا عليه وحاولوا إيجاد البديل ." وإلى جانب جماعة الدّيوان نجد لمدرسة أبولو، والمدرسة المهجرية صيحات فيما يخص القصيدة العربية القديمة فقد حاولت المدرسة المهجرية التجديد وكان زعيمها في ذلك جبران خليل جبران فقد تمرّد على الأشكال التقليدية القديمة، والرغبة في الاتجاه نحوالجديد " [31]

من خلال هذه المفاهيم التي أوردناها يمكننا القول بأنّ التمرّد من الوجهة الاصطّلاحية يختلف إلى حدّ بعيد عن مدلول التمرّد من حيث الوجهة اللّغوية، وقد ربط ألبير كامو مفهوم التمرّد بالفلسفة حيث يقول : " فالمدلول الفلسفي ينطوي على معنى الرّفض الكامل " Refus " للقدر الإنساني، أي أنّ الإنسان يرفض كلّ الأوضاع الّتي تقدّر له بوصفه إنسانا ضعيفا وهذا التمرّد هوما يسميه كامو بالتمرّد الميتّافيزيقي ."[32]

---

[30] -المرجع السابق،ص66

[31] -محمد زكي العشماوي دراسات في النقد العربي المعاصر، دار النهضة العربية بيروت 1986، ص 103-104

[32]- محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر،ص104-105 .

II-أشكال التمرّد :

أ- التمرّد القيّمي: لقد ساهم البناء الإجتماعي، والإقتصادي، والسياسي بدرجة كبيرة في خلق جوانب التوتر لدى الفرد أو الجماعة، وهذا ما أدى إلى تغذية نزعة التمرّد ولعلّ الإنضّباط الّذي تطلبه الجماعة من الفرد يؤدّي حتما إلى حرمانهم من إتيان أشياء تتعلق برغباتهم الخاصّة الّتي قد تختلف في بعض الأحيان عن رغبات الجماعة، هذا الحرمان الّذي يؤدّي حتما إلى التمرّد والعصيان. هذا البناء نتج عنه عدّة أشكال نذكر منها:

1- التمرّد السياسي:" جاء في الموسوعة السياسية مصطلح التمرّد "Rebellion ": الرّفض ومقاومة السّلطة بإتّخاذ أشكال متنوعة منه ما هوذهني، ومعنوي أي رفض أسس العلاقات والمقولات الفكريّة للنظام السّائد والدّعوة لتغييره ومنه ما هوإجتماعي مثل رفض الأعراف والخروج عنها وخرقها" [33]

إنّ المتمرّد على الوضعيّة السياسية إنّما يتمرّد في نفس اللّحظة على الوضعية الفكرية ولعلّ الشّعراء الصّعاليك خير مثال لهذه النّزعة، فتاريخهم مليء بالغضب والتمرّد والإحتجاج حيث جسّدوا أوضاعهم في أشعارهم، وهي تعبير عن واقعهم المر الّذي كانوا يعيشونه.

"لذلك كان من الطّبيعي أن يتحدد الحديث عن التمرّد السياسي عند هذه الإتّجاهات الأساسية: رفض الهزيمة من جهة، ورفض الصّمت والقهر من جهة أخرى، وإدانة خيانة السلاطين من جهة ثالثة "[34] . ولقد حشد الشّعراء منذ القديم هذه الإتّجاهات في أشعارهم وقد دار شعر " التمرد على الهزيمة" حول ظواهر هي:

" تسليط التمرّد على الواقع دون الإلتفات إلى الماضي وإبراز روح التحدّي والرّفض ورفض محاولات تذويب الشخصية... " [35] . وقد دار التمرّد على الصمت والقهر في القضايا التّالية: " رفض التحجّر والصمت، والتّوق إلى عالم كل ما فيه حرية وتحرّر. أمّا التمرّد على القهر فيكمن في الوقوف في وجه قهر الأمن والجواسيس والمخبرين. والتمرّد في وجه قهر الحياة بالتعذيب والقتل" [36]

وإذا كان الإنسان يتمرّد لأنّه يرفض أن ينصّاع لظروف يجدّها غير محتملة وهوما يبرّر تمرّده،أويعطيه الحق في التمرّد وهذا الأخير ينطبق على الشّعب المستعمَر الّذي لا يريد أن يخضع لذل المستعمر، فيخرج عن نظامه الّذي يفرضه ويحاول مقاومته بالسلاح وبالقلم ويعتبر هذا التمرّد تمرّدا إيجابيا لأنّه دفاع عن الوطن، وعن الهوية، وعن الحقوق المهضومة وهويهدف كذلك إلى تحقيق قواعد أخلاقية أسمى من خلال الدّفاع عن أمّة بأكملها، فيكتسب التمرّد بذلك قيمة لها طابع العمومية.

" وما الطريق لدى الإنسان المتمرّد سوى الصراع المستمر بين وعيه بذاته وبين الحياة ومحاولته الدّائبة في" امتلاك الحياة " والسّيطرة عليها بغية الوصول إلى وحدته الذاتية الخاصّة "[37]

2-**التمرّد الاجتماعي**: التمرّد الاجتماعي تعبير عن ضيق الفرد بفداحة التفاوت الطّبقي ورفضه لغلط القيم المتخلفة، ومعارضته للجمود في كلّ شيء، وقد برّزت هذه الظّواهر الأساسية كلّها في الشّعر العربي، سواء في شعر الصّعاليك أو في الشّعر العربي المعاصر.

" فشعر الصعاليك – مثلا- وهو تعبير عن واقعهم التاريخي الّذي هو ملئ بالتمرّد والغضب والاحتجاج، قد يكون تمرّدا محدودا في إطار إجتماعي كما يبدو للوهلة الأولى، إلى أنّ هذه المحدودية تتساقط أمام تأمّل الظّاهرة حيث أنّ التمرّد الاجتماعي قد لا يمكن أن يتم في غياب أشكال

---

[33] - محمد يحياتن، مفهوم التمرد عند ألبير كاموموقفه من الثورة الجزائرية ص20

[34] - محمود عبد الله محمد خوالدة، علم نفس الإرهاب، ص38

[35] - محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، أطروحة دكتوراه بجامعة الأزهر، ص74

[36] - المرجع السابق، ص176.

[37] - محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص229.

التمرّد الأخرى كالشّكل السياسي مثلا، فإنّ المتمرّد على الوضعية الاجتماعية إنّما يتمرّد في نفس اللّحظة على الوضعية السياسية " [38]

ونجد شعراء المرحلة المعاصرة نادوا بضرورة الثورة على كثير من القيّم الاجتماعية وحتمية انعتاق المرأة من أسر العبودية الاجتماعية ." التمرّد الاجتماعي في الشعر العربي المعاصر سلط غضبه وانقضاضه على طبيعة العلاقات الاجتماعية في شكلها الطبقي من جهة وعلى طبيعة العلاقات الاجتماعية في شكلها النوعي من جهة أخرى" [39] "ففي قصائد التمرّد على التفاوت الطبقي لم تعد هناك قداسة مخلوعة على طبقة بذتها، وإنّما على النقيض بدت هذه القصائد كأنّما تريد أن تجرم هذه الطبقات وتخلع شيئا من القداسة على عذابات الطبقة الكادحة" [40]

بمعنى أنّ الشعراء انتقلوا إلى تصوير الواقع الاجتماعي للطبقة الكادحة محاولة لتحريضها على التمرّد، وعلى الثورة على القوانين المفروضة عليها من طرف الطّبقة الحاكمة أو البرجوازية.

إذن كان التمرّد الاجتماعي في الشعر العربي المعاصر وليد إحساس عارم بفداحة العلاقات الاجتماعية الجائرة في كل منحى من مناحي الحياة العربية، سياسيا، واجتماعيا وحضاريا بمعنى أنّ قلّة قليلة من جماهير الأمّة كانت تحتكر النّفوذ في كل مظهر من هذه المظاهر وتتداول هذا النفوذ جيلا بعد جيل وكانت الكثرة الساحقة من جماهير هذه الأمّة مطحونة بواقعها الطبقي الأدنى ومحكومة بالبقاء في قاعة، ومحرومة حتّى من التّطلع إلى عدل إجتماعي يمكن أن يقرب تقريبا حقيقيا بين طبقات هذا المجتمع، وكانت تثور بين الحين والحين ثورات اجتماعية ربّما تكون قد أفلحت في تكوين إحساس مشترك بين الجّماهير بضرورة المساواة والعدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص.

3- **التمرّد الميتافيزيقي**: يصف ألبير كاموالتمرّد الميتافيزيقي بأنّه : "حركة يواجه بها الإنسان قدره والبشرية بأجمعها، محاولا أن يسترد الوحدة السعيدة،وأن يتخلص من عذابات الموت والحياة"[41] وهوكذالك "تمرّد الإنسان على حالة من حيث هوإنسان"[42]

والتمرّد الميتافيزيقي يدور أساسا حول ثلاثة محاور هي:

أولا: (تمرّد التسّاؤل) الّذي يواجه الظّواهر الإنسانية والوجودية والميتافيزيقية أو بعضها بنوع من اللاّأدرية الشاملة من أين؟ وإلى أين؟ وكيف"وهذا التمرّد يلقى الظاهرة ويتسائل عن قيمة الوجود هذا التسّاؤل ليس تساؤلا ساذجا، إنّما هوتساؤل يتضمن تمرّدا على استعصاء هذه الظّواهر وتمرّد المواقف وهوالّذي يواجه مناطق معينة من هذه الظّواهر الانسانية والوجودية والميتافيزيقية باللاإرادية الشاملة مرة، وبالرّفض الشّامل أيضا مرّة أخرى . وما يميّز هذا التمرّد عن التمرّد الأوّل هوعمله فقط في مناطق معينة من هذه الظواهر، ولا يتجاوز ذلك إلى مواجهة الظاهرة كلّها، أمّا تمرّد الرّفض فهوالّذي يواجه مجموع هذه الظواهر بالمصادرة الكاملة من أول الأمر، أي أنّه يضع رفضه وتمرّده في مواجهة المنبع والقاعدة [43]

ب- **التمرّد على المستوى الفنّي :**

---

[38] - زيدان عبد القادر عبد الحميد، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء، الاسكندرية، ط1 2003 ص 132.

[39] - محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص 12.

[40] - المرجع السابق، ص 287.

[41] - جون كروشانك، ترجمة وتعليق جلال العشري، ألبير كاموأدب التمرد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1976، ص 17

[42] -المرجع السابق،ص17

[43] - محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص 82.

1- التمرّد على الشّكل : لقد ظهر الخليل بن أحمد الفراهدي فيما يقرب من ثلاثة قرون من ظهور القصيدة العربية في شكلها التقليدي المعروف وحاول أن يضع قواعد وموازين لتلك القصيدة، ولم يكن يفكر في أنّ عمله سيكون معايير ثابتة تحتجز الإبداع الشعري في قوالب يمكن الخروج عنها أومحاولة تجاوزها، فإذا كان هذا هوالشّكل الموسيقي الّذي تحرك فيه الشعر العربي، فإنّ أوّل ما يلفتنا فيه هوهذه الصرامة الرّياضية الّتي تحدّد قوانينه الشكلية وتضبط ايقاعه الموسيقي، " وإذا كان هذا الشّكل قد اكتسب رسوخا تاريخيا لامتداده كلّ هذا الامتداد في أعماق الزّمن فإن قيمته النهائية لا يحددها هذا القدم لوحده، وإنّما يحددها كذلك اقتداره الفذّ على التعبير الفني البليغ عن كلّ هذه المراحل التاريخية، وقيادته النابغة للوجدان العربي طيلة هذه القرون " [44] إلاّ أنّ هذا الامتداد للشكل القديم لم يلبث أن تعرض في الطّور الأخير إلى رجة زحزحته بعض الشيء عن مكانه. " وقد بدأت حركة التمرّد على الشكل التقليدي للقصيدة العربية تأخذ شكل الظاهرة مع مطالع القرن العشرين، أمّا قبل ذلك فقد كان التمرّد على الشّكل مجرد محاولات نرى لها شواهد متناثرة في القديم والحديث " [45]

وهذا يعني أنّ التمرّد في هذه المرحلة لم يكن وليد الصدفة لكن كان استجابة للتغيّرات الّتي طرأت على العصر، وبمجرد أن هبت عواصف التمرّد على الشّكل الثابت للقصيدة، راح الشعراء يزحزحزن القافية عن مكانها وهذا أول ما بدأوا فيه ." وحاول غير واحد من الشعراء أن يزحزح القافية، أول الأمر عن مكانها، وأن يطلق الأبيات من عقار البحث عن كلمات معينة تنتهي جميعها بحرف أوحرفين أو بأكثر على هيئة واحدة ." [46]

وهكذا حدثت أول رجّة حقيقية في مسار القصيدة العربية منذ مطالع القرن العشرين، أملا في الخروج بها شكلا ومضمونا إلى مجالات جديدة أرحب.

" وبهذا تأخذ هذه الحركة المتمرّدة وجهها البطولي بما هي هادفة إلى نقل الإبداع الشعري من وضعية جامدة إلى وضعية جدلية فذّة تستطيع من خلالها أن تفعل الكثير ... " [47]

وفي هذه المرحلة أيضا واصل المتمرّدون اشعال جذوة تمرّداتهم من خلال رفضهم للشّكل التقليدي للقصيدة وحمل راية الرّيادة في هذا العصيان الفني أحمد زكي أبوشادي ." أجرء الخائضين في مجالات التجريب الشعري لتعدد قراءاته في الأدب الغربي وتأثره العميق بهذه القراءات، فنادى في مطالع العشرينات بضرورة التحوّل من نظام الشعر التقليدي إلى نظام الشعر الحرّ ."[48]

وقد فضّل أبوشادي الشعر الحرّ لأنّه وجد فيه وسيلة أفضل لصياغة الملاحم والدراما والشعر القصصي، فهوليس حرا من قيد القافية فحسب، إنّه يمكن الشاعر من تنويع الإيقاع تبعا للفكرة والعاطفة ." واستيقن أبوشادي من أنّ الشّكل التقليدي يميل إلى استعباد الشاعر فالوزن التقليدي يجر الشاعر إلى استخدام أسلوب وإيقاع وتكتيكات تضرب بجذورها في أعماق عقله الباطن وتملي عليه الإيقاع والمعجم والأسلوب، وتغلبه على إبداعه وشخصيته " [49]

لذلك نادى إلى شكل جديد يمكن الشاعر من تجاوز هذا الإستعداد، وقد تابع أبا شادي في هذه الدعوة إلى الشعر الحرّ بعض شعراء جيله في مصر والعالم العربي، ممّا يؤكدّ أنّ هذه الدّعوة

---

[44] - محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص 42.

[45] - المرجع السابق، ص 43

[46] - المرجع السابق، ص44

[47] - المرجع السابق، ص 46

[48] - المرجع السابق، ص 47

[49] - محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص 47.

كانت صدى لما يختلج في صدور الشعراء من رفض للشّكل التّقليدي للقصيدة، وتوقهم إلى التحرّر من شطورها المتساوية ألّتي تصرف جهد الشاعر إلى مراقبة هندسته الشكلية وهذا ما يؤكد : " أنّ الدّعوة إلى تحرير الشعرلم تكن مزاجا فرديا بقدر ما كانت تعبيرا عن رؤية مرحلة وجيل بدليل أنّ الشّعراء الّذين أرسوا هذه التّجارب كانوا يقفون مع تجاربهم موقفا نقديا خالصا يوضح الأساس الفلسفي الّذي أملى عليهم السير في هذا الاتّجاه" [50]

إذن يمكن أن نقول أنّ هذه الحركة كانت تمرّدا على مسار الحركة الشعرية في تشكيلها الموسيقي والعروضي التقليدي الّذي انحدر إلينا من عصر الخليل . هذه الحركة استطاعت أن تستوعب روح التمرّد وليس مجرد شكله الخارجي، فأعطّت من خلال فهمها لطبيعة التّطور كلّ ابداعها الفني والنّقدي .

2- **التمرّد على المضمون :** لقد تحرّر الشّعر المهجري، وشعر مدرسة الدّيوان، وجماعة أبولومن هتافات القريض التقليدية كالمدح والفخر، والهجاء، فالشعر في أيّ زمن إنّما يعبر عن عصره وللتعبير عن حقيقة هذه المشاعر، وجب على الشاعر أن ينطلق ويتحرّر من القيود الّتي كانت تلزمه أن يكون في قالب معين، وقد أصبح موضوع القصيدة له علاقة بالحياة الخاصّة بالشاعر، والتّجربة الشعرية هي جزء من حياته فالشعر إذن هوتعبير صادق عن الذّات، وقد كانت ذات الشعراء متمرّدة ترفض السير على طريقة القدامى وترفض التقليد فهي تريد أن تعبر عن نفسها بإحساسها الخاص وليس بإحساس القدامى، حيث أنّ النزعة الذاتية أصبحت مسيطرة على العمل الشعري.وأصبحت موضوعات الشعر تكاد تكون ترجمة خالصة لروح العصر.

3-**التمرّد على اللّغة**:وتعني اللّغة كلّ ما يدخل في تركيب العمل الشعري من:ألفاظ، وجمل وعلاقات، وأسلوب، وصور، ومحسّنات...والتمرّد على اللّغة لايتم إلاّبواسطة اللّغة نفسها بمعنى أنّ تمرّد الشّعر على اللّغة يعني نقل هذه اللّغة من طور التحجّر والجمود إلى طور التّطور.

"ولابد كذلك من الوعي بأنّ العمل الفني والقصيدة الشعرية بالذّات لاتنفصل فيه اللّغة عن الشّكل لأنّ شكل القصيدة لايتجسد وجوده الحقيقي إلاّ من خلال اللّغة، كما أنّه لاتنفصل فيه اللّغة عن المضمون،لأنّ مضمون القصيدة ليس شيئا بدون هذا الوعاء اللّغوي الّذي يحمل عن الشاعر بوحه الدّاخلي "[51]

ولقد حاول شعراء العصر الحديث أن يطورو المعجم الشعري وأن يحاولوا استخدام ألفاظ جديدة ليثروا بها لغة الشعر إيمانا منهم، " بأنّ اللّغة العربية في صورتها الموروثة فقدت حيويتها وتحولت إلى مجرد رموز قاموسية لا قيمة لها ولا جدوة من الإعتماد عليها لقيام أدب عصري صحيح، وهي كانت من أكبر العوامل الّتي أصابت الأدب العربي الحديث بالجمود لأنّ الأدباء والشعراء قد اعتمدوا على هذه اللّغة ذات الصور الميتة والدلالات المحدودة في التعبير عن حاجياتهم العصرية " [52]واللّغة لا تكون شعرية بحق إلاّ عندما تكون نابضة بروح العصر .

وهذه الطّائفة من آراء الدّاعين إلى الانقلاب على قداسة المعجم الشعري : يقول محمود تيمور :" وإلقاء نظرة عامة على أدبنا العربي الحديث فيما سما إليه من تجديد ومسايرة للأفكار العصرية في فهم رسالة الأدب ومهمة الأديب، ترينا أن أدبنا قد مرّ أول ما مر بعهد حاول فيه تعصير اللّغة بالاقتصار على الألفاظ الحية المأنوسة في الاستعمال، وحاول فيه تعصير الأسلوب باخلائه من التزاويق والمحسّنات، وحاول فيه تعصير موضوعه بجعله أدبا محليا يستجيب للبيئة من حوله ويعبر عنها ". [53]

---

[50] - المرجع السابق، ص 50.

[51] - محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص 20.

[52] - عبد الحكيم بليح، حركة التجديد في شعر المهجريين بين النظرية والتطبيق، ص 71.

[53] - محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص 123.

ويقول خليل مطران شارحا طريقته في رفض المعجم الشعري: " ... واستقلت لي طريقة في كيف ينبغي أن يكون الشعر، فشرّعت أنظمة لترضية نفسي... موافقا زماني فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ، والتراكيب، لا أخشى استخدامها أحيانا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ". [54]

أمّا ميخائيل نعيمة فيرفض أن تستعبد اللّغة الإنسان، " لأنّ الإنسان أوجد اللّغة ولم توجد اللّغة الإنسان، فهي تحيا به لاهويحيا بها، وتتغير بتغير أطواره ولا يتغير بتغير اطـوارها ." [55]

كان هذا هوحجم التمرّد على لغة الشعر، أملا في الوصول إلى لغة معاصرة قـادرة على مخاطبة إنسان المرحلة، وعلى احتواء الهموم الذّاتية والإجتماعية والحضّارية وعلى العبور بالإبداع العربي إلى أبعد الحدود

III-علاقة التمرّد بالاغتراب الرّوحي :

أ- التمرّد والغربة عند الفلاسفة :

يذهب بعض الدّارسين إلى أنّ جون جاك روسوصاحب العقد الإجتماعي " هوأول من استعمل تعبير " الغربة " عندما كان يناقش فكرة تمثيل الشعب بواسطة نوابه وانتهى إلى أنّ : " الشّعب عندما يتولّى النّواب تمثيله، يبتعد في الحقيقة عن مباشرة أعمال السيادة الخاصة به ويأخذ طريقه إلى العزلة داخل وطنه، ومن هنا يأتي شعوره بالعزلة ." [56]

ويواصل جون جاك في مناقشة فكرته فيقول : " ولكن – فيما يبدو– أمام تعقد الحياة، وتعدّد الدّول واتساعها وتقسيم السلطات فيها، كان لابدّ من ممارسة ما يسمى بالتّمثيل الشعبي، الّذي أدّى بصورة حادة إلى الغربة – في نظره- حيث تركزت السّلطة مما أدّى إلى ضياع الحرية والدّيمقراطية ." [57]

نلاحظ أنّ جون جاك روسوربط مفهوم " الغربة" بالمعنى السياسي ولكن نجده في موضع آخر يتحدث عن غربة الإنسان الحديث، فقد رأى أنّ الحضارة عامل من عوامل إفساد الإنسان عن الطّبيعة . وكان يرى أنّ التّطور الّذي يصحب الإنسان في حالة التمدين والتحضر وهويسير به نحواكتمال المجتمع، يسير به في الوقت ذاته نحوإفساده ولا علاج لهذا الإنسان من هذه الحالة المغتربة، سوى بالعودة إلى الطبيعة، وهنا يعنى روسوالعودة إلى المحبة والتعاطف الإنساني الذي كان يميز الحياة الإنسانية الأولى .

أما مفهوم الغربة عند " هيجل " فأخذ مسارا آخرا، وهومفهوم فلسفي لم يظهر من قبل عند " روسو" ." لأنّ العصر الّذي عاشه هيجل لا يخلومن تأزّم وتمزّق، ودائما ما تكون الأزمات التارخية وليدة توتر وتناقض يرتبط بالعلاقة القائمة بين الفرد وبين المجتمع الّذي يعيش فيه هذا الفرد ."[58]

وقد وصف " هيجل " حالة التمزّق والانحلال الّتي كانت تعاني منها ألمانيا فقال : " إنّ الدّولة الألمانية في العقد الأخير من القرن الثامن عشر لم تعد دولة إذ أنّ مخلفات الاستبداد الاقطاعي كانت

---

[54] - المرجع السابق، ص 123.

[55] -المرجع السابق، ص 125.

[56] - زيدان عبد القادر عبد الحميد، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص 11

[57] - المرجع السابق، ص 11

[58] -المرجع السابق، ص 12

لا تزال تضرب أطنابها في ألمانيا، وازداد طغيانها لأنّها تفتت إلى كثرة من النظم الاستبدادية الصغيرة الّتي يتنافس كل منها مع الآخر ." [59]
أي أنّ الوضع السياسي القائم آنذاك في ألمانيا من ظلم واستبداد وطغيان أدّى إلى الشعور بالاغتراب، ولقد ربط هيجل بين الثقافة والاغتراب . يقول: "ولقد كانت الطبقات المتعلمة تعزل نفسها عن الشؤون العملية، ولما كانت بذلك قد حكمت على نفسها بالعجز عن استخدام عقلها استخداما تطبيقيا من أجل إعادة تشكيل المجتمع، فإنّها عملت على تحقيق ذاتها في عالم العلم والفن والفلسفة والدّين ."[60]

واعتبرت هذه الطبقة هذا العالم هوالعالم الحقيقي الّذي تستطيع من خلاله تنمية مواهبها وقدراتها ويرى هيجل أنّ الثقافة " هي كل ضروب النشاط الإنساني من إقتصاد وسياسة ودين وفلسفة أي كل أنواع الننشاط الّتي يقوم بها الفرد في محاولة منه للتسامي بذاته عن طريق العمل على سلب ذاته أوالاغتراب عن ذاته بغية الوصول إلى اكتساب ضرب من الحقيقة الجوهرية ."[61]

وفي محاولة من الفيلسوف " هيجل " لايجاد علاج للاغتراب الّذي يعاني منه الإنسان اقترح العودة إلى الحب الذي يجمع أفراد المجتمع الواحد، وهوبذلك يخالف رأي الفيلسوف " روسو" الّذي نادى بالعودة إلى الطبيعة .

أمّا كارل ماركس فلخص الاغتراب في نقطتين أساسيتين هما :

الأوّل عندما يكون الإنسان في حالة العمل وبخاصة عندما يمارس هذا العمل في نطاق رأسمالي فإنّه يكون دائما في حالة اغتراب عن قواه الإبداعية، والثاني شعوره بالغربة نتيجة لإحساسه بأنّ وجوده هومن أجل الإنتاج بدلا من أن يكون موجودا من أجله "[62]هذه هي بداية بروز فكرة الاغتراب في عصر النهضة أمّا بداية بروز فكرة الغربة والتمرّد في التفكير الفلسفي المعاصر "فهونتيجة للثورات والتطّورات المتتابعة على الواقع الأوروبي خلال القرنين الماضيين، لاينفي تحققها في الواقع العملي في حياة الإنسان الممتدة في الماضي دون أن يقف عندها الفكر الإنساني لكي يتأمّلها ويناقشها "[63]

فالتمرّد يبقى قائما على مرّ العصور سواء كان هذا التمرّد، تمرّدا على القيم، أوتمرّدا على وضع يعيشه الإنسان. إذن ففكرة الغربة والتمرّد هي فكرة لصيقة بالإنسان ومشاعره, على مرّ العصور.

ب- التمرّد والغربة في البيئة الجاهلية :

وإذا حاولنا أن نحدّد فكرة التمرد فلعلّ البيئة الجاهلية خير مثال لبروز هذه النزعة.إذ أنّ الصّلة الّتي كانت تربط الفرد بالقبيلة في كثير من الأحيان كانت تربة خصبة لفكرتي الغربة

---

[59] - المرجع السابق، ص 12-13

[60] - زيدان عبد القادر عبد الحميد، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص 18.

[61] - المرجع السابق، ص 18.

[62] - المرجع السابق، ص 20.

[63] - المرجع السابق، ص 28.

والتمرّد، حيث خلّفت مجتمعا للسّادة والأغنياء, ومجتمعا للفقراء والمعدمين، وقد كانت دعامة هذه الصّلة تتمثل في العصبية الّتي كان لها أثرها في وحدة القبيلة.

"فالبناء الاجتماعي للقبيلة كان يقوم على طبقتين أساسيتين في الحقيقة، ونعني بهاتين الطبقتين طبقة السادة، وطبقة العبيد أمّا الطبقة الثالثة, وهي طبقة الموالي فكانت تتألف من العتقاء ومن الأفراد اللاّجئين طلبا للحماية "[64]

وقد ساهم هذا البناء الاجتماعي في خلق جوانب التوتر بين الفرد وبين قبيلته لانعدام الاتصال والحوار بين هذه الطبقات.

من هنا تبين إلى أيّ مدى كانت استحالة الوجود الحي لطبقة العبيد وهذا ما أدّى بالفرد الى كبح رغباته الخاصة , حتى لايخرج عن قوانين الجماعة.

ومن جهة أخرى, يرى علماء النفس "أنّ الرّوابط الّتي تأتي من وجهة رابطة الجنس وخاصة في مثل هذا النظام القبلي, لم تنه تماما حالات الصراع داخل النطاق الجماعي"[65] .

مستندين في رؤيتهم هذه إلى أنّ الانضباط الّذي تطلبه الجماعة من الأفراد ينطوي بالضرورة على حرمانهم من إتيان أشياء تتعلق برغباتهم.

"هذا الحرمان الّذي يؤدّي حتما إلى نوع من التمرّد والعصيان "[66]

والأمثلة كثيرة في هذه البيئة ولعلّ الأسماء التي تم ذكرها في الكتب والدواوين، والّتي عانت الضياع والاغتراب، أقلّ بكثير من الأسماء الّتي لم تذكر، ولكننا نعطي مثالا على علم من الأعلام الّذي عاش الاغتراب، وأحس بالضّياع، ليس وسط قبيلته فحسب- بل بين أهله-ألا وهو"عنترة بن شدّاد العبسي" عنترة الّذي كان أبوه سيدا، وأمّه زبيبة أمة لهذا السيد، ونتيجة لتهميشه من طرف القبيلة، الّتي كانت تعتبره واحد من الأغربة السّود الّذين لا يصلحون إلاّ للرعي والقيام بأعمال التنظيف نتيجة لهذا كله شعر بالضياع، وبالاغتراب الروحي. وحاول التمرّد على القوانين الّتي كانت تفرضها القبيلة على العبيد، ولم يشفع لعنترة نسب أبيه، فكان مكروها من طرف الأب ومن ورائه جميع أفراد القبيلة، فهم ليعاملونه إلاّ كما يعامل سائر العبيد، ولكنّه كان يعرف إمكاناته الذاتية فهوفارس القبيلة بلا منازع. لذلك استغل هذه النقطة ليتمرّد على كلّ هذه القوانين، وعلى سادته، وعلى أبيه.

فانتصر عنترة على التقاليد الاجتماعية الّتي كانت ترفض اعتراف السّيد بابنه من الآمة.

"ولقد جاءت هذه اللّحظة واستطاع عنترة أن ينتصر على هذا السّلوك الاجتماعي الّذي كان يحول بينه وبين أن يندمج في مجتمع الأحرار "[67]

وما عنترة بن شداد إلاّ مثال على ظاهرة التمرّد الّتي كانت سائدة بقوة في البيئة الجاهلية نتيجة الظّروف الاجتماعية والاقتصادية الّتي كان يعيشها الفرد آنذاك.

ج-التمرّد والغربة عند الشعراء الرّومانسيين : لقد سمّى الدّكتور محمد زكي العشماوي. الغربة والتمرّد بأمراض الفكر في القرن العشرين وقد عرّف الغربة بـ:" مرض يتّصل بتصدع الذّات أوانشقاقها نتيجة لعدم تواؤمها أوانسجامها مع المجتمع الّذي تعيش فيه ." [68]

فإذا انتقلنا إلى أدباء وشعراء الرومانسية وجدناهم أكثر الناس تعبيرا عن معنى الغربة الّتي هي في أساسها مشكلة اجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصام عن مجتمعه. فالشاعر أوالأديب

---

[64] - زيدان عبد القادر عبد الحميد، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص 61.

[65] - المرجع السابق، ص 105.

[66] - سولشير لنجر، التحليل النفسي والسلوك الإجتماعي، ترجمة د، سامي محمد علي، دار المعارف القاهرة، ص 105.

[67] - زيدان عبد القادر عبد الحميد، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص 97.

[68] - محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، ص52.

الرومانسي، أديب غريب، متشائم من واقعه المرير، يحاول تحقيق ما يريده عن طريق عالم آخر، هوعالم مليء بالخيالات والتأملات، وعالم بعيد كل البعد عن واقعه، هذا الشعور باللاّمعنى للحياة هوالنقطة التي منها يبدأ الغريب مرحلة المجابهة، مجابهة الواقع الأليم، وذلك بالتمرد على قوانينه وقيمه، فلقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر رحيل الكثير من الشعراء والأدباء من جميع الأقطار العربية خاصة من سوريا ولبنان إلى أمريكا ودول أوروبا بحثا عن العمل من أجل الارتزاق والعيش الكريم، "وإلى جانب العامل الاقتصادي كانت تركيا قد أورثتهم انقسامات اجتماعية وعذابات مريرة بلغت ذروتها في المجاعة الّتي حاربتهم خلال الحرب العالمية الأولى ولم يخطأ صاحب كتاب "المهاجر السوري " إذ قال: وكان الباعث الأكبر على المهاجرة اختلال الأحوال الاقتصادية في السلطة العثمانية بفساد الحكومة الاستبدادية جرت على مذهب فرّق تسد حتى تضعضع الأمن وسادت الفوضى وثقلت المعيشة " [69]

نستخلص من كل هذا، أنّ التمرّد جاء في جانب كبير من جوانبه تمرّدا على الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية الّتي كانت سائدة داخل المجتمعات.وكانت في معظم الأحوال وراء اغتراب الفرد وضياعه ودور المعتقدات، والقيم، والأعراف في تعميق شعور الإنسان في أيّ مجتمع باغترابه وضياع ذاته.

وكما نعلم أن لكلّ فعل رّد فعل يعاكسه في الاتّجاه أويوازيه, والتمرّد كان نتيجة للاغتراب الّذي كان يعيشه الفرد ولكن ليس كل اغتراب طريق للتمرد فهناك من رضي أن يعيش وسط هذا الضّياع والاغتراب دون أن يحرك ساكنا.

الفصـــــــل الثاني : تجليات التمرد في ديوان اللهب المقدس

1- الأشكال الفنية وتجربة التمرد

[69] - أنيس المقدسي، الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، ط7، 1982، ص 278.

2- التقنيات الفنية

3- قراءة في المضامين الفكرية لمفدي زكرياء

ا - الأشكال الفنية و تجربة التمرد :

مفدي زكريا صاحب تجربة شعرية مميِّزة شكلا ومضمونا، ذلك أنه أوتي من الثوريِّة ورهافة الحس، وصدق الشعور وجمال الصورة، وجزالة اللَّفظ ما يجعله قطبا متميِّزا في عالم الكتابة الشعرية.

أ- **العنونة**:

ومن يتصفح ديوان اللَّهب المقدَّس يستدعي انتباهه منذ الوهلة الأولى: العنوان، إنه عنوان معبِّر، فبقدْر ما فيه من ثورية واندفاع يعبِّر عن الأنفة والعزَّة و الشموخ، وهذا ما يجسِّده لفظ اللَّهب بقدر ما فيه من الشفافية والصوفية والصفاء والطهر والسمو، وهذا ما يجسِّده لفظ المقدَّس، إن ثورة الجزائر لهب مشتعل ورصاص منطلق، وحمراء مهرقة، وآهات وزفرات وتنكيل وتعذيب، وسجون ومعتقلات، وضحايا ومعطوبون .

إنه اللَّهب. وبالمقابل إنه المقدَّس، ثورة من أجل السلم والأمان والعدالة والتنمية، والحفاظ على الهوية والثوابت فالثورة سياج ضروري يصون وديعة هي الجزائر.

إن فكرة العنونة بما لها من تأثير سحري في الدراسات النقدية الحديثة، تفسح لنا المجال واسعا في شعر مفدي زكريا لنقول إن الرجل كان بارعا في

انتقاء عناوينه، ابتداءا من عنوان الديوان – اللّهب المقدس – إلى غيره من العناوين المبثوثة في الديوان.

اللهب المقدس جملة اسمية من اسم وصفة، فاللّهب مبتدأ، وصفه بأنه مقدس، ويجوز أن يكون اللهب خبرا لمبتدأ محذوف وفي وصف بأنه مقدس ويجوز أن يكون اللهب خبرا لمبتدأ محذوف وفي كلتا الحالتين، فالجملة السمية تفيد الثبات كما هو معلوم. إنه ثبات الثورة، ثبات المبدأ، ثبات الجهاد ثبات التاريخ.

ب- **اللازمة**:

مفدي زكريا في جانبه الفني والتصويري شاعر متمرد، صاغ تمرده الفني انطلاقا من تمرده كإنسان وكمناضل وكصاحب فكرة، فهو ليس مثل الشعراء الذين يتمردون في النصوص، يبقون جامدين، متخاذلين في حياتهم و سلوكياتهم. إنه شاعر ثائر قلبا وقالبا، فكرا وقلبا، لغة وصورة، أنظر إلى نشيده الرمز قسما، إن العنوان قمة في التمرد إنه صرخة مدوية في وجوه الظلمة و المستبدين، وصفعة قوية في وجوه المتخاذلين والمتقاعسين والمشككين المترددين، وفي هذا النشيد لازمة يكررها الشاعر بين كل مقطع ومقطع ثلاث مرات : فاشهدوا... فاشهدوا...فاشهدوا.

الأمر بالشهادة نابع من شهادة الشاعر المتضمنة لتاريخ عريق وعقيدة راسخة و مبدأ لايحيد ... فاشهدوا أمر للمستعمرين الغاصبين ...فاشهدوا أمر للمجاهدين المناضلين بأن يثبتوا على المبدأ ويواصلوا المسيرة حتى النصر أو الشهادة.

ج- **شعرية المطالع عند مفدي زكريا** :

ما يميز مفدي زكريا في أغلب قصائده هو شعرية مطالعه وروعة إستهلالاته شأنه في ذلك شأن أبي الطيب المتنبي، وكأن مفدي أراد بمطالعه الرائعة القوية أن يقرع أذان الاستعمار بكلمات من رصاص بل هي أقوى من المدافع، يقول مفدي :

<< سيان عندي مفتوح و منغلق يا سجن بابك أم شدت به الحلق >>[70]

هكذا بتقديم الخبر سيان على المبتدأ، زيادة في إغاظة الاستعمار وإثارة غيظه وحقده وتصميما وعزما على عدم الاستسلام.

إنه مطلع في غاية الحسن و الجودة.

ومن أجمل المطالع أيضا مطلع قصيدة، و تعطلت لغة الكلام، و هو مطلع فيه إحالة على قصيدة شعرية للشاعر المصري الكبير أحمد رامي عندما يقول فيه قصيدة غزلية :

وتعطلت لغة الكلام و خاصمت عيني في الهوى عيناك

أخذ الشاعر البيت من غرضه الغزلي إلى غرض الثورة فأحسن الأخذ، فلغة الكلام مع الاستعمار تعطلت و لغة المفاوضات تجمدت، ولغة السياسة أخرست، ولم يبق إلا لغة واحدة تتكلم إنها لغة الرصاص. يقول مفدي زكريا في مطلعه الرائع :

<< نطق الرصاص فما يباح كلام وجرى القصاص فما يناح ملام >>[71]

---

[70] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 20.

[71] - المصدر السابق ، ص 42.

ورغم ما في البيت من تعمد لمحسن بديعي هو الجناس الناقص بين كلمتي الرصاص و القصاص، و بين كلمتي يباح و يتاح، و بين كلمتي الذين حشو دواوينهم بجناسات ممجوجة ثقيلة.

والسر في هذا هو ترعة التمرد الصادقة عند الشاعر، إن التمرد أكسب كلامه خفة على الروح و السمع، فهو أقرب إلى العفوية.

د- **تنويع الأساليب :**

هناك ظاهرة فنية تستوقفنا في شعر مفدي وهي كثرة الأساليب الإنشائية لاسيما الأمر والنهي والنداء، والسبب راجع لثوران عاطفته وجيشان مشاعره وقوة اندفاعه، فهو يأمر حينا وينهي حينا وينادي في أحيان كثيرة، ومرد ذلك في حقيقته هو التمرد، إذ لو كان الشاعر غير متمرد لكان شعره يسير على نمط واحد ووتيرة جافة، ولكانت الجمل الخبرية بديلا عن الجمل الإنشائية لأنها أكثر تقريرية وجمودا، يقول مفدي :

<< ما للجراحات نخفيها فتبدينا وللحشاشات نأسوها فتدمينا >>[72]

وهي قصيدة نونية حزينة تذكرنا بنونية ابن زيدون.

هـ- **التناص** :

ظاهرة التناص في شعر مفدي زكريا تسترعي الانتباه، ذلك أنه شاعر تمرس على قول الشعر منذ نعومة أظافره بحفظ روائع الشعر العربي وعيونه وخاصة عند فحول الشعراء أمثال امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، والبهاء زهير، وابن خفاجة الأندلسي، وابن زيدون الأندلسي وغيرهم، وقد علق بذاكرته كثير مما قرأ وحفظ، فكانت كثير من قصائده تنبع بنفحات من روح هؤلاء الشعراء. وأول ما يستوقفنا في الديوان قول الشاعر في قصيدة الذبيح الصاعد:

<< ليس في الأرض سادة وعبيد كيف نرضى بأن نعيش عبيدا >>[73]

إن هذا المعنى مأخوذ من قول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : << متى استعبدتم الناس و قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا >> .

ويقول مفدي :

<< أنام ملء عيوني غبطة و رضى على صياصيك لاهم و لا قلق >>[74]

مأخوذ من قول المتنبي :

<< أنام ملء جفوني عن شواردها و يسهر الخلق جراها و يختصم >>

إذا كان المتنبي يفتخر في هذا البيت بشاعريته الكبيرة، وبأن الناس يختصمون من بعده في قيمة شعره، فإن مفدي يفتخر هنا بثورة شعب بأكمله ضد السجون و المعتقلات، وكيف لا والشاعر ينام ملء عيونه راضيا بالسجن و السجان، فلا تخيفه القضبان، ولا قساوة السجان ولا ظلمة الجلاد إنه صابر محتسب، أليس هذا هو التمرد بعينه؟

والجدير بالذكر في هذا المقام أن مفدي في هذه القصيدة بالذات وهو في ظلمة سجن بريروس سنة 1955 تهيج بخاطره ذكرى إنسانة غالية اسمها سلوى يكتب فيها أبياتا شعرية جميلة في ثنايا القصيدة كنوع من التمرد على

---

[72]- مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 219.

[73]- المصدر السابق، ص 16.

[74]- المصدر السابق ، ص 21.

ظلمة السجن وروتين العذاب وجمود الظلمة وفظاظة المستعمرين وصمت العالم أجمع .

<< عادت بها الروح من سلوى معطرة فالسجن من ذكر سلوى كله عبق

هل تذكرين إذا ما الحظ حالفنا ما ضره السجن إلا أنه ومق >> [75]

وفي قصيدة " اقرأ كتابك" يلتقي الشاعر مع الشاعر الجاهلي عمر بن كلثوم في قصيدته الفخرية الشهيرة.

يقول مفدي :

<< و قل الجزائر! واصغ إن ذكر اسمها تجد الجبابر ساجدين وركعا >>[76]

ويقول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدين

إذا كان عمرو بن كلثوم يتمرد على ملوك زمانه ويفتخر بأن الصبي إذا ولد في قبيلتهم أي قبيلة الشاعر، يخر له الملوك ساجدين، فإن مفدي يتمرد أكثر وأكثر فيذكر أن الجزائر إذا سمع اسمها في العالم خر الجبابرة ساجدين وركعا معا، وهذا مبالغة في التمرد. ويسير معنا مفدي في تناصه مع الشعراء فنجده يقول :

<< قال الزمان ألستم؟ قالوا بلى نحن الضيوف وأنت رب الدار >>[77]

ويقول شاعر آخر قديم :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل.

الشاعر القديم يفتخر بجود قومه وكرمهم وبأن الضيف عندهم يصبح سيد الدار لأنه لا حرج عليه، أما مفدي فإن الجزائريين عنده لبسالتهم وشجاعتهم صاروا أربابا لدار ضيوفها المستضعفون في الأرض، أليس هذا التمرد حقيقة ؟

إن مفدي شاعر له استقلاليته في لغته وأسلوبه، في صوره وخياله في فكره بل وفي تناصه، إنه ليس إمعة أو مقلدا أعمى لغيره من الشعراء حتى وإن كانوا فحولا، إنه يتناص معهم في كثير من الأبيات، غير أن صبغته تتغلب وطابع استقلاليته يبدو حاضرا ومهيمنا وهذا هو الإبداع.

و- **الأغراض** :

الأغراض الشعرية عند مفدي زكريا تتسم بالشمولية والعموم وتنحو منحى جماعيا وليس فرديا، ذلك أن الشاعر عاش هموم وطنه هما بهم بل كان شعره سجلا توثيقيا لكل صغيرة وكبيرة، إن الأغراض الشعرية المشهورة لدى الشعراء منذ الجاهلية كالمدح والفخر والوصف والغزل والحكمة والاعتذار والهجاء والزهد والاستعطاف أغراض مكرورة عند الشعراء، يكاد لا يخلو منها ديوان شعري، والقليل من الشعراء من نظم هذه الأغراض لهدف أسمى وغاية أعلى، كأن يكون المدح مثلا للوطن أو الأمة أو أن يكون الهجاء لرذائل الأخلاق وسيء الصفات، بدل هجاء الأشخاص بأعيانهم.

إن بشار بن برد عندما يهجو، وهو أمير الهجاء العربي، يهتك أعراض المهجو، ويمزق شمله ويقزم حجمه، ويجعله أضحوكة بين الناس أما أبو البقاء الرندي عندما يرثي مثلا بلاد الأندلس وما تعرضت له من دمار وخراب فإنه يسمو بعيدا إلى أفق أرحب وغاية أنبل، فينسى الأشخاص والأفراد.

---

[75] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 22.

[76] - المصدر السابق ، ص 58.

[77] - المصدر السابق ، ص 144.

ومفدي زكريا من الشعراء القلائل في تاريخ العرب الذين سخروا شعرهم خدمة لوطنهم و أمتهم ودفاعا عن المثل السامية لبني الإنسان، مثل العدل والحق والمساواة والعيش بكرامة، ونبذ التعصب و العنصرية والاستعمار بكل أشكاله و ألوانه.

إن مفدي زكريا وإن اتخذ بعض المناسبات وسيلة لنظم شعره عربون وفاء لتونس أو المغرب أو مصر أو العراق، فإنما يتخذ ذلك مطية لغرض أسمى، وغاية أنبل.

و لنأخذ مثلا قصيدة مدحية مدح بها الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري بعنوان " يقدس فيك الشعب أعظم قائد". إن التمرد في هذه القصيدة باد للعيان .يقول الشاعر:

<< أثرت على العاتين حربا و لم تنزل عليهم تلظى كالجحيم و توقد
وسطرت للأحرار بالدم غاية لها المهج الحرى طريق معبد
فما خمدت نيران حربك لحظة وهيهات نيران الجزائر تخمد >> [78]

الشاعر يتخذ من سيرة الأمير عبد القادر مثلا أعلى لتمرد الحق ضد الباطل والكرامة ضد الذل.إن الجزائريين سطروا للأحرار غايتهم ليس بالمداد والقلم وإنما بالدم الأحمر القاني، وسلكوا طريقا عبدت بمهج الشهداء. إن الأمير عبد القادر عندما ثار لم يثر كشخص وإنما كأمة، وهذا ما يجسده مفدي بقوله: "وهيهات نيران الجزائر تخمد".

أنظر إلى الشاعر وهو يبعث بتهنئة شعرية لجريدة البيان العربية الصادرة في البرازيل هذه الصحيفة ساندت ثورة الجزائر يبعث إليها في شهر ماي سنة 1960م، هذه الأبيات:

<< ولتكن صرخة المدافع فيها فاعلاتن و قصفها ألحانا
و جراح المضرحين قوافيـ ها و إلهامها زكي دمانا >>[79]

إن الشاعر وهو يهنئ هذه الجريدة يهنئها بطريقة تمردية إذ قوافي شعره كتبت بدماء الشهداء المضرجين بدمائهم الزكية الطاهرة، كما أن وزنه الشعري لا يصاغ على تفعيلة "فاعلا تن" أي البحر الخفيف وإنما يصاغ بصرخة المدافع.

في قصيدة وصفية لزلزال أغادير بالمغرب الأقصى في شتاء سنة 1960م يتجلى التمرد بكل ما تحمله الكلمة من معنى.إن اضطراب الأرض وتزلزلها لا يثير الرعب في نفوس المغاربة والجزائريين لأن هذا أمر طبيعي وحكمة إلهية، ولكن غير الطبيعي هو أن يرضخ الإنسان المغاربي للأعداء المستعمرين.

يقول مفدي :

<< اضطرب يا بحر واحفق يا فضا واحتدم يا خطب وانزل يا قضا
وارجفي يا أرض أو لا ترجفي أنا في المحنة لا أدري البكا
و أخسفي يا دار أولا تخسفي أنا من علمه المجد البنا>> [80]

---

[78] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 173.
[79] - المصدر السابق، ص 175-176.
[80] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص166.

الزلـــزال إذا لا يخيـــف، ورجـــة الأرض لا ترعـــب، بـــل العكـــس هـــو الصـــحيح إن الـــذي يخيـــف ويزلـــزل هـــو صـــمود هـــؤلاء المستبســـلين مـــن أبنـــاء هـــذا الـــوطن فـــي ساحات الوغى، هذا هو الزلزال الحقيقي.

إن كلمـــات مثـــل: اضـــطرب، أخفـــق، احتـــدم، خطـــب، قضـــا، أرجفـــي، اخســـفي كلمـــات تعبـــر عـــن نزعـــة تمـــرد واضـــحة مـــن قـــاموس المقاومـــة و المواجهـــة التـــي عرف بها الشاعر.

ولـــو عـــدنا لأول قصـــيدة فـــي الـــديوان وهـــي قصـــيدة الـــذبيح الصـــاعد ومـــا ذكـــره الشـــاعر مـــن أوصـــاف خارقـــة للشـــهيد أحمـــد زبانـــا، إلا خيـــر دليـــل علـــى نزعـــة التمـــرد المتجذرة في نفسية الشاعر.

والجـــدير بالـــذكر هنـــا أن مفـــدي زكريـــا يســـتعمل المبالغـــات الكثيـــرة فـــي أوصـــافه و الألفـــاظ الفضفاضـــة الجزلـــى ذات الوقـــع الموســـيقي الرهيـــب، وهـــي ســـمة بـــارزة فـــي شـــعره لا يشـــاركه فيهـــا أحـــد مـــن الشـــعراء و فـــي هـــذا تمـــرد واضـــح علـــى لغـــة الشعراء الوصفية.

لـــم يعـــرف علـــى مفـــدي زكريـــا اشـــتغاله بـــالغزل كغـــرض شـــعري، إنمـــا ورد الغـــزل فـــي تضـــاعيف قصـــائده وبـــين أبياتـــه وذلـــك لأن الشـــاعر أخلـــص حبـــه لمعشـــوقة واحـــدة هـــي الجزائـــر، فلـــيس فـــي قلبـــه ســـواها، ومـــا المـــرأة التـــي تـــذكر فـــي شـــعره إلا غصن من أغصان تلك الشجرة الوارفة التي هي شجرة الجزائر.

لقـــد عـــاش مفـــدي زكريـــا هائمـــا بوطنـــه، مغـــردا فـــي ســـربه، صـــادعا بقولـــه الحـــق في ساحاته، منافحا عنه بقلمه، ثملا بخمرة عشقه.

المـــرأة فـــي شـــعر مفـــدي زكريـــا هـــي الرمـــز، هـــي الـــوطن، هـــي الحريـــة هـــي الجزائـــر ومـــا حديثـــه عـــن ســـلوى فـــي قصـــيدته التـــي نظمهـــا فـــي الســـجن إلا أطياف لوطن بات مكبلا بقيود ثقيلة ووضع مأساوي لا يوصف.

يقول مفدي :

<< هل تذكرين إذا ما الحظ حالفنا إليك أهتف يا سلوى فنتفـــق ؟
أم تذكرين و لحن الموج يطربنا إذ نفرش الرمل في الشاط و تعتنق ؟
الموج ينقل في أصدائه قبـلا يندى لها الصخر حتى كاد ينفلـق

إلى أن يقول :

يا لائم في هواها إنها قبـس من الجزائر و الأمثال تنطبق
بنت الجزائر أهوى فيك طلعتها فكل ما فيك من أوصافها خلق
أحبها مثل حب الله أعبدهـا أمنت بالله لا كفر و لا نـزق >>[81]

الغزل إذا عند مفدي زكريا ليس بالمرأة وحسنها، والقد وجماله، والعيون النجلاء الساحرة، والخد المورد الفاتن والثغر الباسم الضحوك، إن الغزل بشيء أسمى وأرقى وأقدس الغزل بسحر الوطن وشموخ التاريخ، وعنفوان الأصالة وروعة المجد.

أمـا الهجـاء فقـد بـث فـي قصـائد الشـاعر بثـا فهـو حينمـا يصـف بشـاعة وأهـوال فضـائع الاستعمار، يعدد ألوان جرائمه المستهجنة، ويشنع بها ويفضحها ويهجوها هجاء لاذعا ويصورها تصويرا تقشعر منه الجلود وتتقزز منه النفوس.

إذا فالوصـــف هـــو الوعـــاء المفضـــل لـــدى الشـــاعر ليصـــب فيـــه جـــام غضـــبه على الاستعمار بهجاء محرق سليط فضاح بتصوير بارع حي حيوي.

يقـــول مفـــدي فـــي قصـــيدته << ســـنثأر للشـــعب>> بمناســـبة الـــذكرى السادســـة للثـــورة الجزائرية.

<< فخبر بني الدنيا نفمبر أننـا سنثأر للشعب الذي لم يزل يشقـى

---

[81] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 25-26.

سنثأر للبيت الذي كان أهـلا فرجت به الألغام تسحقه سحقـا
سنثأر للبنت التي ديس قدسها ودنس أحلاس الخنا عرضها الأنقى
سنثأر للطفل الرضيع و قد غدا و في فمه الرشاش يحسبه رزقا >>[82]

إن الشـــاعر فـــي هـــذه الأبيـــات يـــدعو نـــوفمبر شـــهر التحـــرر أن يخبـــر العـــالم بأن هذا الشعب سيثأر لكل عزيز وسيرد الصاع صاعين.

إن البيـــت الـــذي أحـــرق، بمـــن فيـــه وفجـــر تفجيـــرا وســـحق أهلـــه ســـحقا، وإن البنـــت الطـــاهرة العفيفـــة التـــي ديـــس عفافهـــا وطهرهـــا بأنجـــاس مراذيـــل وســـفلة غوغـــاء وأحـــلاس الخنـــا، وإن الطفـــل الرضـــيع الـــذي ألقـــم الرشـــاش القاتـــل وهـــو يعتقـــد فـــي بـــراءة وســـذاجة أنـــه يرضـــع مـــن ثـــدي أمـــه، إن كـــل هـــؤلاء لابـــد أن نثـــار لهـــم و أن نرد حقوقهم، وما أجمل ما ختم به الشاعر هذه القصيدة وهو قوله:

<< هي الوحدة الكبرى فمن رام قطعها فقد رام أن يستل من صلبنا عرقا
هو المارد العملاق إن تحم طهـره تعش مستقلا لا تضل و لا تشقى>>[83]

ما أروعه من ختام و ما أجملها من نهاية !

إن الشاعر يرى في الوحدة المغاربية والعربية والإسلامية مخرجا لكل أزماتنا السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، إن الوحدة الكبرى هي المارد العملاق، هي العيش الحقيقي وما أروع ما ختم به أبياته بقوله :

"لا تضل ولا تشقى"، وهو تعبير قرآني رائع مأخوذ من قوله تعالى:" فلا يضل ولا يشقى" .

II-التقنيات الفنية :

أ- **اللغة الشعرية (المعجم الشعري) :**

إن موضوع لغة الشعر من أهم المواضيع التي تعرضت للدراسة و نحن إن نتحدث عن التجربة الشعرية عند مفدي زكريا، نتحدث عن التجربة اللغوية عنده لأن : << التجربة الشعرية في أساسها

---

[82] - المصدر السابق، ص 200.

[83] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 205.

تجربة لغة، ولغة الشعر، هي الوجود الشعري الذي يحقق في اللغة انفعالا و صوتا موسيقيا، وفكرا >>[84]

وإن نظرة عجلى على الإنتاج الشعري الجزائري قبل الاستقلال، وغداته تسمح لنا بملاحظة المميزات البارزة فيه، فقد كانت القصيدة الجزائرية في تلك المرحلة تتسم بالمباشرة والتقريرية إلى درجة أن الألفاظ فيها تتعرى من أية لمسة فنية، وهذا ما أفقرها إلى الموسيقى الداخلية التي تتأتى من حسن تخير اللفظ، وملاءمة الألفاظ المجاورة له في التركيب، أما إذا عدنا إلى اللغة الشعرية عند مفدي زكريا خاصة في ديوانه " اللهب المقدس" فإنها لغة أكثر حدة و أكثر خدمة للغرض الشعري الذي يريده الشاعر .

إن اللغة في "اللهب المقدس" تصطبغ بلمسة غير تلك التي كانت عليها من قبل في دواوين الشعراء، و من أجل هذا سوف نحاول – ولو بشكل بسيط – التوغل إلى أغوارها، حتى تكتشف سرها كوسيلة للتمرد، خاصة إذا علمنا أن ديوان" اللهب المقدس" كان بمثابة عرض حال عن الثورة الجزائرية يوما بيوم، بل ساعة بساعة، وسنحاول معرفة مدى تأثر اللغة الشعرية في هذا الديوان بأحداث الثورة، وبنزعة الشاعر الثورية المتمردة .

وحتى نطلع بشكل أكثر توسعا على اللغة الشعرية في ديوان " للهب المقدس" فسندرس بعض المقاطع الشعرية التي تعبر بشكل جلي عن نزعة التمرد في فكر الشاعر.

وأول قصيدة تواجهنا ، ونحن نفتح الديوان " الذبيح الصاعد" والتي نظمها بمناسبة تنفيذ حكم الإعدام على الشهيد " أحمد زبانة " ليلة 18 جويلية 1955 بسجن بربروس :

<< قـام يختال كالمسيح وئيدا يتـهادى نشوان يتلو النشيـدا
باسم الثغر كالملائـك أو كالطفل يستقبل الصباح الجديدا >>[85]

وأول ملاحظة يمكن إدراجها هنا، هو التأثر الكبير للشاعر بالثقافة الإسلامية إذ استحضر صورة المسيح وأسقطها على الشهيد، فزبانا سبق إلى المقصلة وأعدم وفاضت روحه إلى بارئها.

ثم أردف قائلا : " يتهادى نشوان" وهذه العبارة تطلق على السكير فالنشوة هي الحالة التي يصير إليها من يعاقر الخمرة، نعم إنه ثمل من حب هذا الوطن،ثمل لثقته الكبيرة في أن قضيته عادلة، ثمل يتهادى افتخارا، لا يهاب المقصلة، ولا الجلاد، إنه في أقصى درجات الثقة بالنفس، وهذا الشعور لا يؤتاه إلا العظماء من الأنبياء والشهداء وفي هذا المقطع بالذات نلمس نوعا من التوجه الصوفي العميق لدى مفدي زكريا عندما يتحدث عن السكر، وعن الملائكة وعن تلك الروح الحالمة المتطلعة، المستشرقة لغد أكثر إشراقا على هذا الوطن المفدى، ثم إنه يشبه الشهيد أحمد زبانا، بالملائكة، وبالطفل، فما وجه الشبه بينه، وبين هذين المخلوقين المقدسين؟ إنه هادئ، مبتسم، طاهر، بريء، يكاد يكون مخلوقا نورانيا بتلك الصورة الرائعة، وهو يساق إلى مصيره المحتوم، وكأني به يمشي، يستقبل من نافذة غرفته أول أشعة الشمس تماما كما يفعل الأطفال ...

إن اللغة هنا لم تصف بطلا فحسب، وإنما رسمت لنا صورة بطولية متكاملة الأبعاد، إن الشاعر لم يركز إلى اللغة المألوفة لوصف مثل هذه الملاحم لأنه يعلم يقينا أن اللغة أيضا تشيخ بعد عمر طويل و تضعف و ربما تتعطل أمام كثير من المواقف العظيمة :

<< نطق الرصاص فما يباح كلام و جرى القصاص فما يتاح ملام >>[86]

فالكلام محرم إلا على الرصاص، لأنه السيد، فالشاعر هنا يعظم صوت الرصاص كما عظم لغة القنابل والنار:

و الجدير الذكر أن هذه الصورة مقتبسة من الأبيات الشعرية الشهيرة لأبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حدة الحد بين الجد و اللعب

---

[84] - سعيد الورقي،لغة الشعر الحديث: مقوماتها و طاقاتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية،مصر، (د ط)،2005، ص5

[85] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص09

[86] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص42.

و يقول مفدي :

<< لغة القنابل في البيان فصيحة وضعت لمن في مسمعيه صمام

ولوافح النيران خير لوائـح رفعت لمن في ناظريه ركــام >>[87]

و أبو تمام قبله قال :

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك و الريب

وكما استعذب عبق البارود في موضع آخر :

<< وروائح البارود مسك نوافح سجرت لمن في منخريه زكام >>[88]

إن الشاعر يعظم كل لغة تجعل العدو الغاشم يصغي للثورة الجزائرية.

<< وتكلم الرشاش جل جلالـه فاهتزت الدنيا و ضج النيــر>>[89]

إنه يرفع من منزلة لرشاش إلى حد تعظيمه ووصفه بصفات الله، و هذا لعظم ما يمكن أن يفعل بالعدو. إن اللغة في أغلب قصائد "اللهب المقدس" مأخوذة بشكل جلي من يوميات الثورة المباركة، ولهذا يجدها القارئ تنبض بالتمرد.

وتأخذ ظاهرة التشخيص حيزا كبيرا عند مفدي زكريا، إذ لا تكاد قصائده تخلوا من هذه السمة، فيضفي حياة على الأشياء التي لا حياة فيها، وينتقل بها من عالمها المادي إلى عام الأحياء كما الحال في الرشاش الذي يتكلم، والرصاص الذي ينطق ...

و ظاهرة التشخيص في حد ذاتها نوع من التمرد الشعري أو الاستعمال المحدث للألفاظ.

ومفدي زكريا خريج جامعة الزيتونة بتونس، وحافظ للقرآن الكريم و ملم بالثقافة الإسلامية و هذا ما طبع شعره بتلك الروح العقائدية الواضحة، كما يبدد تأثره بالشعراء العرب تأثرا واضحا على غرار المتنبي وأبي تمام وأحمد شوقي، الذي نرى تقاطعا لأكثر من قصيدة له معهم في هذا الديوان. سواء من ناحية اللغة أو الصورة أو لموسيقى الشعرية، ومن أبرز القصائد في ديوان " اللهب المقدس" النشيد الوطني "قسما" الذي جاء في خمسة أجزاء، هذا النشيد الذي يزخر بالمعاني الثورية الخالدة والتي من شأنها إشعال جذوة التمرد في قلوب كل الجزائريين وحثهم على الجهاد، إنه قبل كل شيء قسم، أراد أن يقصم به الشاعر ظهر العدو في البدايات الأولى للثورة المسلحة :

<< قسما بالنازلات الماحقـات والدماء الزكيات الطاهــرات

والبنود اللامعات الخافقـات في الجبال الشامخات الشاهقات >>[90]

الشاعر يقسم بالقنابل، وبالدماء الطاهرة، وبالعلم الجزائري، الذي ظل خفاقا على قمم الجبال، يقسم بكل هذه الأشياء العظيمة أن الشعب الجزائري ثار لايخاف الموت في سبيــل الحرية ثم إنه يشهد العالم كله على ما يقول بعد كل مقطع، بلازمة تحمل كل معاني الثورة و العزيمة على تحقيق النصر:

<< وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا ... فاشهدوا ... فاشهدوا >>[91]

ولعل هذا المطلع الشعري في نشيد قسما من أبدع وأروع المطالع الشعرية التي قرأناها في شعرنا العربي، وهذا من إبداعات مفدي زكريا.

إن هذا القصيد الذي هو النشيد الرسمي للجزائر المستقلة خير دليل على مدى التمرد والوعي الثوري الذي اعتنقه الجزائريون، فالتمرد ظاهر بيِّن :

<< يا فرنسا قد مضى وقت العتاب و طويناه كما يطوى الكتاب

---

[87] - المصدر السابق ، ص 44.

[88] - المصدر السابق ، ص 44.

[89]- مفدي زكريا ، اللهب المقدس، 13ص4.

[90]- المصدر السابق ، ص 71.

[91]- المصدر السابق ، ص 71.

يا فرنسا إن ذا يوم الحســاب فاستعدي وخذي منا الجواب >>[92]

وفي قصيدة "أنا ثائر" التي نظمها الشاعر أثناء فراره من السجن متجها إلى المغرب سنة 1959 وهذه القصيدة من أجمل ما نظم الشعر خاصة في الشعر الجديد متأثرا بالشعراء المشارقة :

<< في الحنايا ...
وسواد الليل قاتم
مالت الأكوان سكرى
ثملات
أودعتها مهجة الأقدار سرا ..>>[93]

إنه يصور لنا مكان ما، أو طريقا ما في هذا العالم، المظلم الذي يكتنفه الغموض العميق إنه طريق محفوف بالمجهول، إن الشاعر يتكلم عن شخص ما، وكأني به يتحدث عن نفسه، نعم إنه هو ذاته، في طريقه إلى المغرب فارا من السجن.

<< قام كالمارد .... يرتاد المنايا
و تهادى
يملأ العالم بشرى
و تحدى الدهر لا يخشى الرزايا
و تمادى
يغمر الأكوان عطرا
و مضى يبني على هام الضحايا
وتنادي
يلهم التاريخ سفرا >>[94]

فعبارة " قام كالمارد" تحمل كل معاني الثورة، والتمرد على هذا العدو الغاشم إنه مارد فوق العادة، مارد يحمل البشرى، إنه ملاك يريد إشاعة الفرح في هذا العالم متحديا كل المصاعب مادام متيقنا من عدالة قضيته ثم يواصل:

<< و يغني فوق أعواد المشانق
فتحييه الخوافق
و تزكيه الخوارق
أنا ثائر
في الجزائر
أنا ثائر
إن أمت : تحيا الجزائر >>[95]

هي ذروة الثورة والتمرد لهذا المناضل إلى درجة أنه يغني على المشانق غير آبها بالجلاد، فتنحني له الدنيا صاغرة.

الألفاظ الدالة على التمرد:

ترجف، اشنقوني، اصلبوني، ثائر، المارد، ثارت، اندفعنا، داهمته، هب، اصعقي، ابلعي، صرخ الرشاش، أمطري، حديدا ونارا، استشيطي، غيظ، استصرخي، أحشري، اربطي، شهيدا، قربان يلهبني، الجلاد، يكويني، التعذيب، خطوط النار، اخترقوا، الفواتك، ينصب، لعلع، جهاد، زلزل غلاب، القنابل، فجر، الأشلاء، صلنا، الخوارق، خضناها، حرروا، حسام، السيف الصفائح،الكتائب، الجنود، جحافل، لوافح، البارود، سجرت، الجماجم، الخميس اللهام، اصدع اقذف، يصهر، هذا غيظ من فيض، ومن يتصفح ديوان اللهب المقدس يجد مئات الألفاظ التي تصب

---

[92] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص22.
[93] - المصدر السابق ، ص 124.
[94] - المصدر السابق ، ص 124.
[95]- مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص126.

في خانة التمرد، وتدور في فلكها. وجملة ما يمكن قوله عن القصائد التي يحويها "اللهب المقدس" هي أنها ذات نبرة ثورية قوية ولغة شعرية تنبض بروح التجديد، وتعج بالحركة والحياة، وهذا الديوان بالذات يحمل شحنة دافقة من التمرد على الاستعمار، فكل قصائده نظمها الشاعر في أكثر سنوات الثورة حدة وضراوة، وفي أكثر المرات في زنزانات العدو، وخلاصة القول عن اللغة الشعرية في ديوان "اللهب المقدس": إنها لغة قوية تستقي أصالتها من التراث الشعري العربي، ومن القرآن الكريم هي لغة أمكنت الشاعر من التمرد على الوضع المأساوي السائد، فمفدي زكريا وفق إلى حد كبير في جعل الألفاظ تخدم نزعة التمرد عنده .

ب- الصورة الفنية :

الشعر ليس بالعالم المسطح يسبره أي كان، ولا هو بالعالم الشفاف لا نكاد نراه حتى نكتشفه، لكن هو ذلك العالم المليء بالرسوم وبالسحر وبالجمال، وهو عالم تنصهر فيه الحدود ويلغى المنطق عالم يضعه الشاعر من رمز، وإيقاع، وصور فنية. والصورة الفنية << طريقة خاصة من طرق التعبير،أو وجه من أوجه الدلالة >>[96] فالصورة الشعرية هي أهم عنصر في العمل الفني، ولها من الأهمية والخطورة ما يحتم على الشاعر، حسن اختيارها، واختيار مكانها أو موقعها في التركيب بمراعاة مثيلاتها. وتشكل الصورة الفنية بفضل ترابط وتناسق الدلالات الألفاظ والعبارات.

"أما الصورة والظلال فهي استنفاد لطاقة الحس والخيال المصاحبة للتجربة الشعورية القوية الفائضة من التعبير اللفظي المجرد"[97] فاللفظة لوحدها ليست لها القدرة على التصوير إلا بتألقها مع ألفاظ أخرى في التركيب، والصورة الشعرية الهادفة الناجحة ليست تلك الصورة الضبابية المفتعلة لغير ما معنى واضح فصارت بلا شك ضربا من الشطط.

ويعرف الدكتور " خليل أبو جهجة " الصورة الشعرية بقوله << أما الصورة الشعرية فهي أسبق من الفكر الذي لا يصير مادة للشعر بغيرها، لأن الخيال أبعد فتحا من العقل فهو مقياس العبقرية والوجه المرئي لها : وبالتالي لا وجود للاختراع الفني إلا بوجود الخيال >>[98]

و تستعمل كلمة الصورة – عادة - << للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي، وتطلق أحيانا مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات >>[99]

فالصورة هي التي تقدم المعنى بطريقة تقربه للقارئ، وتجعل وقعه أشد على نفسه، وتقوم الصورة الفنية أساسا على الاستعارة التي تكون في بعض الأحيان حالة رمزية [100]

هذا بالإضافة إلى الإيقاع الذي له دور هام في بناء الصورة، << ووظيفة الأديب حينئذ أن يهيئ نظاما، ونسقا، وجوا يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع >>[101]

فدور الشاعر أو الأديب هو التنسيق بين أجزاء الصورة حتى تكتمل << فإن الصورة تنطلق دائما من عالم الأجزاء، والأقسام لتجمع بين ألوانها، وأصواتها وأحداثها، وتوحد بينها >>[102]. إذن دور الشاعر مهم جدا في خلق الصورة الفنية الناجحة البعيدة عن الغرابة.

وإذا ما عدنا إلى الصورة الفنية في الشعر الحديث، وجدناها تعتمد أساسا على الرمز لأن الرمز << وسيلة إدراك مالا يستطاع التعبير عنه بغيره >>[103]على حد تعبير يونغ، ومتى كانت الصورة الفنية تحمل شيئا من الواقع كانت ناجحة، وفي هذا الشأن يقول محمد مندور: << ليس الأدب المهموس

---

[96]- جابر عصفور ، النقد الأدبي: ج2 ، الصورة الفنية في لتراث النقدي و البلاغي عند العرب ، دار الكتاب المصري القاهرة (دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1، 2003، ص 323 .

[97]- سيد قطب، النقد الأدبي : أصوله و مناهجه ، دار الشروق ، بيروت / القاهرة ط 5، 1983 ص 56

[98]- خليل أبو جهجة ، الحداثة الشعرية العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط1 1995، ص 232،231

[99]- مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، (د،ط) ،(د،ت)، ص 03

[100]- المرجع السابق، ص 03.

[101]- سيد قطب، النقد الأدبي : أصوله و مناهجه ، ص 40.

[102]- أحمد الطريسي : النص الشعري، بين الرؤية البيانية والرؤية الإشارية، الدار المصرية السعودية للطباعة و النشر ، القاهرة (د،ط)، 2004، ص 111 .

[103]- جابر عصفور، النقد الأدبي ، ص 153.

لونا من الموسيقى فحسب، هو أدب يصاغ من الحياة، وكأنه قطع منها، فيه تفاهة الحياة ونبلها، وعظمتها وحقارتها، ونورها، وظلامها، هو أدب الحياة، والحياة
شيء مألوف، قريب مني ومنك، فتتعرف عليها للحظتك، وتستمع إلى سرها فتصدقه لأن قلبك قد أحس في غموض بذلك السر >> [104]

فجمالية الصورة هي أن تنساب إلى القارئ وتتغلغل إلى روحه، حينها فقط نستطيع القول، إن الصورة نجحت وإذا أردنا الحديث عن الصورة الفنية في شعر مفدي زكريا، نجده يعنى كثيرا بها، فالصورة لديه أداة فنية تبرز الدلالة وتزيدها قوة، ولو تابعنا مراحل نموها واكتمالها في قصائده نجدها تبدأ بالألفاظ التي تتناسق، وتنسجم لترسم صورا جزئية، تتنامى لتصبح فيما بعد صورا كلية :

<< قام يختال كالمسيح وئيـدا يتهادى نشوان يتلوا النشيـدا
باسم الثغر كالملائـــك أو كالطفل يستقبل الصباح الجديدا >>[105]

فالشاعر يصف لنا بدقة حالة زبانا قبيل إعدامه، إنه يسير أغوار نفسيته، فيرسم لنا مشهدا واضحا عن ذلك الشموخ، والأنفة، ما يترك في ذهن القارئ صورة واضحة عن ملامح هذا الشهيد البطل ثم يواصل :

<< حالما كالكلم كلمة المجـــد فشد الحبال يبغي الصعـودا
وامتطى كالروح في ليلة القدر سلاما يشع في الكون عيـدا
صرخة ترجف العوالم منهـا ونداء مضى يهز الوجـــودا
اشنقوني فلست أخشى حبـالا واصلبوني فلست أخشى حديـدا >>[106]

إن الشاعر يواصل بناء الصورة، فتتنامى بيتا بعد آخر إلى أن يصل إلى الصرخة العظيمة التي وضع لها الشهيد حدا لصمته، كانت صرخة في وجه الغاشم المعتدي، صرخة اهتز لها كل ما في الكون، لأنها صرخة بطل فصورة "" الصرخة "" هي ظل للصورة الأولى ""صورة الهدوء" فكان البركان الذي يثور بعد طول هدوء، فهذه الصورة تشكل موقفا نفسيا أو حالة شعورية عاشها الشاعر.

ولقد لعبت الألفاظ في هذه الصورة دورها، كما نلمس ذكاء الشاعر في الترتيب والتنسيق، حتى جاءت الصورة بهذا التدرج، والتنامي الأنيق، لندرك مدى عظمة أو جلالة الموقف، فالتمرد مشهد ابتدأ جزئيا ثم تنامى إلى أن وصل إلى البيت : أشنقوني .

وفي قصيدة " أنا ثائر" يتدرج الشاعر في رسم نفسية مجاهد فار من السجن، ففي البداية يعطينا المشهد العام، أو الوصف الشامل للعالم الخارجي، أو الفضاء الذي جرت فيه الأحداث وكأن الشاعر يهيئ القارئ، أو يضعه في المناخ المناسب حتى يعيش معه المواقف.

<< في الحنايا ....
وسواد الليل قاتم
مالت الأكوان سكرى
ثملات
أودعتها مهجة الأقدار سرا >>[107]

فهذه النظرة الدقيقة هي التي تعطي للقارئ الانسجام أو القدرة على تقبل الأحداث فيما بعد :

<< قام كالمارد ..... يرتاد المنايا
وتهادى
يملأ العالم بشرى

---

[104]- جابر عصفور، النقد الأدبي، ص 213.
[105]- مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 09
[106]- المصدر السابق، ص 09.
[107] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 124.

وتحدى الدهر لا يخشى الرزايا
وتمادى
يغمر الأكوان عطرا >>[108]

ففي هذا الليل الذي يخيم عليه الظلم والاستعباد، هناك زاوية نور تلوح في العتمة، هي تلك الرغبة الجامحة في التمرد التي يمتلئ بها هذا المجاهد وهو يقطع الدروب الوعرة للالتحاق بالرفاق في الجبال ثم يمضي << وينادي ... فتناجيه البنادق >>[109]

وهذه الصورة كانت نتيجة لكل الصور السابقة، فهذا المناضل الفار من السجن، هذا المناضل الذي يكتنفه الغموض والسكون، في هدوء الليل الطويل يكسر صمته، وينادي لتجيبه البنادق في نجوى عاشق، فالبنادق تعشقه، وروائح البارود تعبق سماءه أينما مشى!

إنه ينادي بلاده في صرخة تمرد فتستجيب له لصواعق في صوت "" مناغاة " وكأن بهذا المجاهد طفل بريء يغضب إذا سلب منه شيء ثمين مقدس في مثل قداسة حضن الأم، وهذه الصرخة هي التي تفضي به في النهاية إلى الانعتاق من قيود الاستدمار.

<< أنصفوه إنه ثار ليبقى
يوم يجلى
غاصبوه : عربيا >> [110]

فهذه العبارة الأخيرة هي اكتمال الصورة الكلية، فكل الصور السابقة منذ بداية القصيدة هي استدراج من الشاعر للقارئ ليصل به إلى النهاية، وكأنه يرسم لوحة بكل تفاصيلها، وهذه الصورة المكتملة، والتي رسمها الشاعر بعبقرية فائقة دليل على نزعة التمرد التي تميز توجهه الشعري والفكري، هي صرخة كل من يأبى الاستعباد، والرضوخ للظالمين المعتدين، هي صرخة كل حر في العالم ينشد الحرية والسلام.

إذا كانت الصورة الفنية هدفا منشودا في الدراسات الأدبية الحديثة، ومقياسا موضوعيا يقاس به إبداع الشاعر وتمكنه، فإن مفدي زكريا يعتبر من شعراء الجزائر الرواد في هذا المجال، ذلك أنه طرق الصورة في كثير من قصائده، ولامستها أنامله في كثير من المرات، وإن كان يجنح في بعض صوره إلى التقريرية والخطابية، فاعذروه كونه من أوائل من عنوا بالصورة في شعره، وهذا ما يجعله معرضا لسهام النقد.

غير أن نزعة التمرد الغالبة على شعره الذي قاله أثناء الثورة التحريرية، وخاصة شعر الزنازين يجعلنا نقول في اطمئنان:

إن التمرد شكلته في كثير من جوانبه الصورة الفنية المستقاة في كثير من تجلياتها من فيض القرآن الكريم .

فالقرآن الكريم هو المنبع الثُّر الذي يستقي منه مفدي زكريا صور الاندفاع والثورية و التمرد لاسيما السور المكية ذات الجرس الموسيقي القوي و الدُّوي القاصف و الإيحاءات و الظلال.

ج- **<u>الموسيقى الفنية</u>** :

إن المتصفح شعر مفدي زكريا يلمس خاصية فنية جوهرية تتجلى بوضوح في معظم شعره ألا وهي خاصية الموسيقى الشعرية التي تكاد تعرف بالشاعر دون سواه، فهو شاعر يهتم بالموسيقى الشعرية اهتماما مفرطا، ويختار لها الكلمات اختيارا، إن الشاعر يعمد عن وعي إلى كلمات رنانة في الأذن ذات وقع قوي ودوي يرج المستمع إليها. ولو قارنا شعر مفدي زكريا على

---

[108] - المصدر السابق ، ص 125.
[109] - المصدر السابق ، ص 125.
[110]- مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 129.

سبيل المثال بشعر محمد العيد آل خليفة، وهما شاعران عاشا نفس الحقبة الزمنية لطفر الفرق واضحا بينهما، فمحمد العيد شاعر كلاسيكي تقليدي النزعة، يسير في فنك الشعراء الأقدمين وينسج على منوالهم. إن شعره رغم ما فيه من جزالة الأسلوب ومكانة التركيب فهو شعر تنقصه الموسيقى بشكل عام، ولعل مرد ذلك هو طبيعة الشاعر الهادئة المتزنة، صاحبة السيرة الإصلاحية، الممزوجة بشيء من الصوفية والفقه، بعكس مفدي زكريا الرجل الثائر صاحب السيرة المتمردة، والعنفوان الدافق، وكأن الموسيقى شيء ضروري يلازم شعر مفدي زكريا ليفصح عن مكنونات نفسه، ويترجم عن جيشان عاطفته.

خذ مثالا قصيدة مفدي زكريا المعنونة "أنا ثائر" صفحة 124 في الديوان إلى صفحة 129.

إن الرجل ثائر في هذه القصيدة معنى ومبنى، صورة وفكرة، موسيقى داخلية وخارجية.

هذه القصيدة تصلح مثالا حيا لنزعة التمرد.

يبدأ الشاعر قصيدته "أنا ثائر" هكذا بجملة اسمية المبتدأ فيها الضمير المنفصل " أنا " والخبر كلمة " ثائر" إنه عنوان مباشر صريح صادم للاستعمار والجبناء.

أنا ثائر عنوان مفصح عن هوية الشاعر، بلا لف ولا دوران... إنه يعلنها صراحة: أنا ثائر، وفي هذا من التمرد ما لا يخف فإذا كان بعض الجزائريين المتخاذلين الجبناء الذي استولى الخوف على قلوبهم وشل عزيمتهم قد استكانوا للاستعمار وقبلوا بالأمر الواقع، فإن الشاعر يرد عليهم وعلى أمثالهم بكل قوة وعزم وإصرار وتحد: أنا ثائر!

هذه القصيدة من الشعر الجزائري المبتكر الذي يمثل نزعة التجديد المستكنة في نفسية الشاعر. إننا نعتقد أن مفدي كان يحمل في نفسه وشعره بذور التجديد وملامح لتغيير رغم التزامه الشديد بالقصيدة التقليدية ولعل السبب يرجع إلى أن الوقت لم يكن قد حان بعد لركوب موجة التجديد لبناء القصيدة الشعرية.

"أنا ثائر" كتبت سنة 1959 أثناء فرار الشاعر من السجن في طريقه إلى المغرب. والزمن لم يكن بعيدا بينه وبين الشعر العربي الجديد الذي مثلت نازك الملائكة وبدر شاكر السيّاب أولى طلائعه في سنة 1947م.

إذا مفدي من أوائل الشعراء العرب الذين كان بمقدورهم أن يكتبوا قصيدة النثر أو ما يعرف بالشعر المنثور أو الشعر الحر، ولعل عزوف الشاعر عن الإكثار من هذا النمط يرجع إلى كونه كان في بداياته و لم يرسخ على قدم ثابتة. هذه القصيدة " أنا ثائر" اعتمدت بحر الرمل كبحر أساسي لها غير أن الجديد فيها التنويع في استعمال التفعيلات، وطريقة تقسيم الأبيات وكتابتها عن البياض. هنا يظهر التمرد جليا في الطريقة المبتكرة لمفدي زكريا، وهي نموذج حي عملي لنزعة لتمرد عليها.

يقول مفدي زكريا :

<< في الحنايا ...
وسواد الليل قاتم
مالت الألوان سكرى
ثملات
أودعتها مهجة الأقدار سرا >> [111]

أ- نظام الشطرين (عدم التقيد به) :

الملاحظ هو ابتعاد الشاعر عن تقسيم الأبيات إلى شطرين متساويين شأن الشعر التقليدي المعروف منذ الجاهلية، إذ عمد الشاعر إلى تغيير هذا النمط المتبع، فلم تعد القصيدة مبنية على أساس الأشطر وإنما بنيت على أساس استقلالية البيت. فكل سطر يمثل بيتا في عرف الشاعر الجديد، مثلا : "في الحنايا" هذه التفعيلة : "فاعلاتن" تشكل بمفردها بيتا قائما بنفسه.

أما البيت الثاني فيمثله قول الشاعر : " وسواد الليل قاتم " ويقابل في الوزن : فاعلاتن فاعلن.

---

[111]- مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 124.

أي أن البيت الثاني مشكل من تفعيلتين، وكذلك الأمر في البيت الثالث " مالت الأكوان سكرى ".

ثم يعود الشاعر مرة أخرى إلى السطر الرابع فيقول : ثملات على وزن فعلاتن. وأخيرا يعود في البيت الخامس من نهاية المقطع إلى تكرار فاعلاتن فاعلاتن فاعلن.

أي أن الشاعر نوّع في استعمال تفعيلات بحر الرمل، مرة يذكر تفعيلة واحدة ثم يذكر تفعيلتين ثم يعود إلى تفعيلة واحدة وأخيرا يذكر ثلاث تفعيلات. وهذا نموذج فني يجسد نزعة التمرد والقصيدة كلها سارت على هذا النمط الجديد في توزيع الأبيات، مع الإشارة إلى كون الشاعر كان يعود بين الفينة وأختها إلى إتباع النمط الكلاسيكي في تنويع التفعيلات .

إذن فالقصيدة مزيج بين الخروج والتمرد على نظام الأشطر القديم وطريقة توزيعه وبين السير على منواله والحذو حذوه، وهذا ما أكسب القصيدة جوا كبيرا أبعدها عن الرتابة والنمطية والجفاف فغدت بحق مثالا صادقا عن نزعة التمرد، ويلاحظ أن الشاعر لما تكون عاطفته متأججة وغضبه شديدا يعمد إلى الخروج عن نظام الأشطر القديم، ولما يعود إلى جو الرزانة والاتزان يصبح مقلدا.

ب- <u>القافية (التنويع في القافية)</u> :

تبعا لطبيعة التمرد لدى الشاعر نلاحظ أنه عمد في بعض قصائده و خاصة الأناشيد إلى التنويع في القافية، إذ لم يسير الشاعر على نمط واحد فيها وهذا تبعا لموجات الغضب والحنق التي كانت تعصف بنفسية الشاعر، ولعل سلوك الشاعر هذا المسلك في الأناشيد بخاصة يعود لإدراك الشاعر أن الأناشيد الهدف منها إنشادها وليس قراءتها وهذا يتطلب تنويعا في القوافي حتى لا يمل السامع و حتى يسهل حفظها واستظهارها.

وإليك نموذج النشيد الوطني قسما، هذا النشيد مكون من خمسة مقاطع بعد كل مقطع تأتي اللازمة الشهيرة " فاشهدوا" والمقاطع متنوعة القوافي فالمقطع الأول مثلا: هكذا: قات.

<< قسما بالنازلات المحقات و الدماء الزكيات الطاهرات >>[112]

أما المقطع الثاني و الذي يقول فيه الشاعر:

<< نحن جند في سبيل الحق ثرنـا وإلى استقلالنا بالحرب قمنـا >>[113]

قافيته : قمنا

أما المقطع الثالث والذي يقول فيه :

<< يا فرنسا قد مضى وقت العتاب و طويناه كما يطوى الكتـــاب >>[114]

فإن قافيته : تاب

والمقطع الرابع يأتي على هذا النحو:

<< نحن من أبطالنا ندفع جـندا وعلى أشلائنا نصنع مجـــدا >>[115]

وقافيته: مجدا .

أما آخر المقاطع يقول فيها :

<< صرخة الأوطان من ساح الفدا اسمعوها واستجيبوا للنِّـــــدا >>[116]

فإن قافيته : لنندا.

إذا التنويع موجود ولافت، مما أكسب هذا النشيد جرسا موسيقيا مطربا تقشعر له الجلود سيما عندما يرافق بذلك التلحين المتميز للراحل محمد فوزي.

ج- الروي : (التنويع في حرف الروي) :

---

[112] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 71.

[113] - المصدر السابق، ص 72.

[114] - المصدر السابق ، ص 72.

[115] - المصدر السابق ، ص 72.

[116] - المصدر السابق ، ص 72.

سلك مفدي زكريا مسلكا جديدا في أناشيده تمثل في تنويع حرف الروي في الأبيات تسهيلا لحفظها و حتى يكتب لها السيرورة في الآفاق وهذا نشيد الشهداء مثال عن هذا التنويع.
يقول مفدي زكريا :

<< اعصفي يا ريـــاح واقصفـــي يا رعـــود
واثخـــي يا جـراح واحدقـــي يا قيـــود
نحن قوم أبـاة
ليس فينا جبان
قد سئمنا الحياة
في الشقا و الهوان
لا نمـــل الكفـــاح لا نمـــل الجهـــاد
في سبيل البـــــلاد >> [117]

نلاحظ التمرد جليا في تنويع حرف الروي، إذ البيتان الأولان حرف رويتهما الدال الساكنة قبلها الواو الساكنة، أما البيان بعد ذلك فرويهما الدال المسبوقة بألف مد ساكنة، مما أكسب الكلام تنوعا جميلا مبعدا عن الرتابة، وكل أناشيده الأخرى على هذه الشاكلة.

والرائع أن مفدي زكريا استعمل في قصيدة فريدة في الديوان اللهجة الجزئرية المهذبة وكتب قصيدة بالدارجة المحلية ضمنها اعتزازه بوطنه ودافع عن الجزائريين الذين اتهموا بكونهم فلاقة.

يقول مفدي زكريا في نشيده " جيش التحرير الجزائري "

<< هذي دمانا الغالية دفاقـة
وعلى الجبال علامنا خفاقة
وللجهاد أرواحنا سباقــة
جيش التحرير أحنا ... ماناش (فلاقة) >>[118]

وخلاصة القول في هذا المجال أن مفدي زكريا حافظ على شكل القصيدة العربية القديمة بتساوي أشطر الأبيات ووحدة الروي إلا أنه في أناشيده وبعض قصائده مارس تمرده الفكري والفني، فأحدث تنويعا في نظام الأشطر، وتنويعا آخر في حرف الروي، فغدت تلك العينات من شعره جواهر لماعة في ديوانه ككل، مما أبعده عن الروتين وحببه إلى النفوس، وسهل مأخذه وحبب صورته.

مفدي زكريا شاعر الموسيقى التصويرية الذي خلد في شعره مآثر شعبه وثورة أمته مستعينا بعاطفة مشبوبة وفكر متقد وتأثر بثقافة قرآنية ممتازة واقتباس من تصوير القرآن الكريم وخاصة مشاهد البعث والنشور والقيامة والجنة والنار، مع حسن توظيف الكلمات واختيار الأساليب وتنويعها وقدرة كبيرة على الاعتماد على الصور البيانية والمحسنات البديعية مما شكل نزعة تمردية حقيقية لدى الشاعر وفي شعره .

III- قراءة في المضامين الفكرية لمفدي زكريا :

يعتبـــر مفـــدي زكريـــا مـــن المراجـــع الأساســـية فـــي الـــذاكرة الشـــعرية للأمـــة الجزائريـــة، فهـــو رجـــل مثقـــف، واع، صـــاحب فكـــر ثـــوري مســـتنير، وأفـــق واســـع أرحـــب و تجربـــة شـــعرية رائـــدة ومتميـــزة، ذلـــك أنـــه بحكـــم تنشـــئته الدينيـــة المحافظـــة، وحفظـــه لكتـــاب الله فـــي ســـن مبكـــرة فـــي مســـقط رأســـه بنـــي ميـــزاب وتمرســـه باســـاليب البيـــان العربـــي الناصـــع وإطلاعـــه الكبيـــر علـــى عيـــون الشـــعر العربـــي فـــي

[117] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 84.
[118] - المصدر السابق ، ص 79.

مثل شعر أبي تمام وأبي نواس والبحتري والمتنبي وابن الفارض وابن هانئ الأندلسي، والبارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم وغيرهم.

لهذه الأسباب وغيرها من احتكاكه بالتيارات الفكرية والسياسية الحديثة ونضاله الثوري المبكر، كل هذا ساهم في بلورة شخصية الشاعر وجعل منه شخصية حقيقية بالدرس والتمحيص.

ابن تومرت، وهو لقب للشاعر رجل متميز، ذو ذكاء حاد، وفطنة سريعة وحضور بديهة، مع حدة في المزاج كما يشهد بذلك كثير ممن عرفوه عن قرب ولاسيما صديقه العزيز الوزير الأسبق " مولود قاسم نايت بلقاسم" رحمه الله ...

من هذا المنطلق تستوقفنا محطة هامة في دراسة هذا الشاعر، ألا وهي: المضامين الفكرية في شعره وتراثه.

وكلمحة عجلى على ديوانه يتضح بجلاء أن مضامينه الفكرية كانت كالآتي:

أ- المضمون الإنساني.

ب- المضمون القومي (العروبي الإسلامي)

ج- المضمون الوطني.

د- المضمون الثوري.

هـ - المضمون الإيديولوجي.

وبتحليلنا وتشريحنا لديوانه " اللهب المقدس" يتبين لنا أن هذه المضامين الفكرية تبلورت بشكل واضح في ثنايا قصائده ... فالديوان" اللهب المقدس " اشتمل على خمسة وخمسين قصيدة. وتخلل الديوان بعض الأناشيد الوطنية والثورية على غرار النشيد الوطني الشهير قسما.

وفي هذا الصدد وجدنا الشاعر ضمن ديوانه عشر أناشيد في خمسة وخمسين قصيدة أي بمعدل تقريبا عشر بالمئة من مجموع الديوان، وهي نسبة معتبرة في تحليل ودراسة شعر الشاعر.

ولنبدأ الآن في تحليل مضامين الشاعر من خلال ديوانه اللهب المقدس .

أ- **<u>المضمون الإنساني</u>** : بداية يستوقفنا الشاعر بعناوينه الصادمة والصامدة الصادمة لأنها جديدة مستحدثة في العرف المتداول بيننا كقوله: وقال الله وتكلم الرشاش جل جلاله، لذهبنا نخالف الشيطان .... الخ.

وصامدة لأنها عناوين تحيل على ثورية الشاعر واندفاعه، فمفدي زكريا لا يعتبر الثورة الجزائرية ملكا للجزائر فحسب، ولا للعرب بصفة أعم، بل هي ملك للإنسانية قاطبة، إنها ثورة إنسانية، إنها ثورة أنموذج!

تتجلى النزعة الإنسانية في قصيدة الذبيح الصاعد حينما يعتبر الشاعر" أحمد زبانا" وهو شهيد جزائري كالنبي، بل كأشراف الأنبياء، إنه يجسد صورة عيسى المسيح، وموسى الكليم، و الملك الكريم جبريل عليه السلام، والمؤذن الطاهر والرسول صلى الله عليه وسلم الذي عرج به إلى سدرة المنتهى. إن أحمد زبانا شهيد وليس ككل الشهداء، إنه أشرفهم وأرقاهم منزلة، وأصفاهم وأطهرهم صفة.

أنظر إلى الشاعر حين يقول:

<< صرخة ترجف العوالم منها ونداء مضى يهز الوجود
قوله ردد الزمان صداها قدسيا فأحسن الترديدا

وسرى في فم الزمان زبادا مثلا في فم الزمـان شـرودا >>[119]

إن أحمد زبانا ملك للإنسانية، نموذج أسمى التضحية الغالية، إنه نبراس يضيء للمستعبدين طريق الحرية.

ألم يقل مفدي زكريا :

<< ليس في الأرض سادة وعبيد كيف نرضى بأن نعيش عبيدا >>[120]

والمتصفح بتمعن للديوان يدرك الأبعاد الإنسانية السامية التي كان يرمي إليها الشاعر ولهذا اختار عنوانا لقصيدته في الصفحة 143 من الديوان : "أهدافنا في العالمين صريحة".

قال مفدي :

<< أهدافنا في العالمين صريحة الشعب أعلنها وفسرها الـــدم >>[121]

والملفت للانتباه في هذا الشأن غزارة المعجم اللغوي ذي الطابع الشمولي الإنساني، إذ تكثر في قصائد الشاعر كلمات مثل: العواليم،العالم، الوجود، الزمان،الخافقين،الدنيا،الأرض..الخ وهي دلالات واضحة على النزعة الإنسانية.

إن مفدي زكريا رجل إنساني في نزعته وشهيده أحمد زبانا إنساني في استشهاده، وثورة الجزائر إنسانية في مبادئها وأهدافها.

لهذا كانت ظاهرة التمرد في شعره سمة غالبة إن لم تكن السمة الأولى في شعره.

<< صرخة ترجف العوالم منهـا ونداء مضى يهز الوجـــودا

اشنقوني فلست أخشى حبـالا واصلبوني فلست أخشى حديـدا >>[122]

إنه التمرد السافر على الظلم والطغيان، إنه العظمة التي تدكُّ دونها الجبال. إنه الطموح الذي يطاول عنان السماء إنها العظمة التي ترفض الخضوع! وبتوجهنا نحو عينة ثانية من شعره وهي قصيدته المعنونة : "زنزانة العذاب رقم 73" نجد الشاعر يجسد نزعة التمرد في أقصى صورها.

أولا، اختياره البحر البسيط لهذه القصيدة مما فسح له المجال للتعبير عن عواطفه الجياشة واستفراغ جام غضبه على المستعمرين وأذنابه.

إن الظروف التي قيلت فيها هذه القصيدة هي التمرد بعينه، إذ كتبها سنة 1955 في سجن بربروس في الظلام الحالك، ولاستحالة كتابتها حفظها بيتا بيتا رغم طولها.

اسمع الشاعر وهو يقول مخاطبا الزنزانة :

<< سيانا عندي مفتوح ومنغلق يا سجن بابك أم شدت به الحلق

أم السياط بها الجلاد يلهبني أم خازن النار يكويني فأصطفق >>[123]

إن التمرد في القضية يذكرنا بتمرد المتنبي في شعره، وإن كان من فرق بين التمردين فهو أن تمرد المتنبي كان ضد الوضع البالي للأمة العربية وتخاذلها وتقاعسها، ويأس الشاعر من وضعه المأساوي كإنسان نابغة متميز وسط قوم جهال.

أما تمرد مفدي زكريا فهو تمرد شعب مجروح، عانى الويلات، وتجرع كؤوس الهوان وغشيته من نوائب الاستعمار ما يشيب النواصي !

يقول مفدي زكريا في هذه القصيدة مخاطبا السجن :

<< وأنت يا سجن لو أفلت ناصيتي رأيتني لخطوط النار أخترق

لا أبتغي العز إلا في مغامـرة إن السماوات للمقدام تنفتـق >>[124]

إنه التمرد العاتي على الأوضاع المزرية والظلم البشع والاضطهاد المريع وكأن مفدي في هذا البيت ينظر إلى قول المتنبي:

---

[119]- مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 10-11.

[120]- المصدر السابق ، ص 16.

[121] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 145.

[122] - المصدر السابق ، ص 10.

[123] - المصدر السابق، ص 20.

[124] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 28-29.

"أعز مكان من الورى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب".

ب- **المضمون القومي** : مفدي زكريا شاعر معتز بقوميته إلى حد النخاع، بل ومتعصب لها ومقدس وممجد لتاريخها، أليست العروبة والإسلام مصدر فخر واعتزاز لكل أحرار الدنيا ؟

إن العرب عرفوا بدماثة الأخلاق، وشهامة الطباع، وإغاثة الملهوف، ونجدة المكروب وإكرام الضيف وعلو الهمة ورفض الظلم منذ الجاهلية، وهذه صفات رسخها الإسلام ودعمها أكمل بنيانها وضبطها بميزان الشرع القويم والعقل الحكيم.

لهذا كان تمرد الشاعر من جهة قوميته واضحا وبارزا... إنه يتعصب للعرب ويتمرد ضد أوضاعهم المزرية وحالهم البئيس خاصة في العصر الحديث، إذ معظم الدول العربية استعمرت وكبلت وقيدت، واستبيحت كرامتها وانتزعت حقوقها، وتسلط على رقابها سماسرة الموت و تجار الدمار، وعلى رأسهم الاستعمار الفرنسي الغشوم.

إن المتصفح لديوان اللهب المقدس يلمس بوضوح اهتمام الشاعر بقضايا العرب القومية وعلى رأسها قضية فلسطين، الجوهرة السليبة والدرة المغصوبة، وكثيرا ما ردد الشاعر في أبياته ضرورة أن يفتدي الفلسطينيون بثورة الجزائر كي ينالوا استقلالهم. ألم يقل مفدي في يوم ما : "فليت فلسطين تخطو خطانا ..."

كما أن الشاعر كان لا يفوّت المناسبات القومية فهو يبعث برسائله وقصائده إلى تونس والمغرب وليبيا ومصر داعما جهودهم، شادا على عضدهم، متمسكا بحقوقه، ثابتا على مبدئهم فهو في وقت الفرح يهنئ ويبشر وفي وقت الحزن يواسي وينذر، كل ذلك بشاعرية متدفقة وعواطف مشبوبة وخيال جامح، ونبرة متمردة، وعنفوان ساحق. أنظر إليه وهو يقول :

<< واستشيطي على العروبة غيظا واملئي الشرق والهلال وعيدا >>[125]

فالشرق هو الأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية، والهلال هو رمز هذه الحضارة ويقابل الصليب رمز المسيحية. وتكثر في أشعار مفدي زكريا في هذا الصدد كلمات:الهلال القرآن، الشرق، الأمة، الصليب، الكعبة، محمد... وهي كلمات لها دلالات ورموز، توحي بالانتماء لهذه الأمة ومحبتها والذود عنها والانصهار فيها.

وكدليل على ذلك نذكر أبياته من قصيدته الميمية والمعنونة : "وتعطلت لغة الكلام" يقول الشاعر :

<< يا أمة العرب الكرام كرامـــة لك في الجزائر حرمة و ذمـام
في كل ارض العروبة عندنـــا رحم تشابك عندها الأرحـــام
إن صاح في أرض الجزائر صائح لبته مصر و أدركته شـــام
في المغرب العربي عرق نابض يذكيه في حرب الخلاص ضـرام
عز العروبة في حمى استقلالنـا أيطير مقصوص الجناح حمـام ؟! >>[126]

إن أمة العرب لها مع الجزائر عهود ومواثيق، لا تنفصم عراها، ولا تنبت حبالها، إنها علاقة دموية أخوية متماسكة، بل هي رحم متشابكة، تفرض التزامات وواجبات، وأولها نصرة المظلوم، وإغاثة المكروب، وتقديم يد العون، أما المغرب العربي فهوعرق نابض بالحياة أشعلت حيويته واتقاده حرب الخلاص من العدى، كما أن عز العروبة من عزنا، عز الجزائر.

وهنا أعطى الشاعر تشبيها جميلا مؤداه أننا وإياهم كطائر واحد له جناحان، إذا قص منه جناح تعذر عليه الطيران. نبض العروبة والشعور بالانتماء إلى هذه الأمة شيء ثابت لدى الشاعر، بل هو عقيدة راسخة رسوخ الجبال، ثابتة ثبات الزمن، أليس مفدي زكريا هو القائل في هذا المعنى:

<< واستدرجوه فدبروا إدماجـــه فأبـت عروبته له أن يبلعـــا
وعن العقيدة زوروا تعريفـه فأبى مع الإيمان أن يتزعزعـا
وتعمدوا قطع الطريق فلم تـرد أسبابه بالعرب أن تتقطعـــا

---

[125] - المصدر السابق ، ص 17.

[126]- مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 51.

نسب بدنيا العرب زكى غرسه ألـم فـأورق دوحـه وتفرعـا
سبب بأوتار القلوب عروقــه إن رن هذا رن ذاك ورجعــا
إما نتنهد بالجزائر موجـــع آسى الشام جراحه و توجعــا
واهتز في أرض الكنانة خافـق وأقض في أرض العراق المضجعا >>[127]

إن جرح الجزائر يمتد في شريان الأمة العربية والإسلامية من مشرقها إلى مغربها. إن أنينها وجراحها يسمعه أهل مصر والشام والعراق وهم قلب الأمة ونبضها الخافق، وقد يقول قائل:لماذا هذا الحرص من الشاعر على نزعة القومية العربية والإسلامية، وما السبب في هذه الوحدة النموذجية ؟ وهنا يجيب الشاعر:

<< الضاد في الأجيال خلد مجدها والجرح وحد في هواها المنـزع
فتماسكت بالشرق جمهوريـة عربية وجدت بمصر المرتــع >>[128]

الشاعر في هذين البيتين يعتبر الوحدة العربية ممكنة شريطة أن يتماسك الجميع ويتحد في وجه الظلم والجبروت، وينزع نير الاستعمار البغيض.

وفي قصيدته البائية الجميلة يشيد الشاعر بمؤازرة العرب لإخوانهم الجزائريين ودفاعهم المستميت في سبيل استرداد الجزائر كرامتها، يقول الشاعر:

<< وللشرق المؤزر دم نصيـرا ورافع عن قضيتنا مهابـــا
وإنا أمة للمجد قامـــت على الأشلاء وامتلأت شابـا
وعن أصلنا بنا قدما ورثنــا دما حرا وأضلاعا صلابـــا
نزلنا من معاقلنا صقــورا وصلنا في الوغى أسدا غضابـا >>[129]

إن تاريخ الأمة العربية الإسلامية تاريخ حافل بالتضحيات الجسام التي قدمتها قوافل الشهداء من عهد الصحابة وإلى اليوم، لقد ورثنا البطولة والتضحية عن أجدادنا كما ورثنا دما حرا وأضلاعا صلبة لا تلين و الملاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يحاكي فيها قول أحمد شوقي:

"وما طلب المكارم بالتمني و لكن تؤخذ الدنيا غلابا"

إن الحرية تؤخذ و لا تعطى، و تسترد و لا تمنح.

ج- **<u>المضمون الوطني</u>** : مفدي زكريا إنسان وطني على حد النخاع ولا يشكك في هذا أحد فالرجل زج به في السجن في مناسبات عدة، بل وحكم عليه بالإعدام، ولاقى من صنوف الأذى و ألوان التنكيل ما يشيخ الرضع، لقد قابل كل ذلك بصبر جميل وعزيمة لا تفتر وإرادة من فولاذ و إيمان لا يتزعزع ...

إن الجزائر في مخيلة الشاعر وفكره ووجدانه، بل هي نبضة من نبضات قلبه المجروح وشهقة من شهقات صدره المكلوم.

مفدي سخر قلمه و لسانه للدفاع عن الجزائر، أمة ووطنا وشعبا وتاريخا وثورة وأصالة ولو لم يكن له من الشعر إلا النشيد الوطني "قسما" لكان ذلك كافيا للتدليل على صدق وطنيته و عمق ارتباطه بأرضه، فكيف هو الحال أن الشاعر صخر جل شعره للذود عن حمى الوطن ضد كل غاصب مستبد.

ومن تصفح الديوان في إهدائه يجد الشاعر وطنيا إلى أبعد الحدود، يقول مفدي في إهدائه صفحة ثلاثة : " - إلى الدقيقة الواحدة من فاتح نوفمبر تشرين الثاني 1954

- إلى أول إصبع جزائرية حركها الأزل، وضغط بها القدر الرابض على زناد البعث لنطلق القذيفة المسحورة الأولى فتسعر اللهب المقدس في دروب بلادي الحالمة و أحراشهـــا السكرى و رمالها العطشى وجبالها الغضبى".

إنه إهداء من نوع خاص، أثر الوطن على الزوجة والولد، والأصدقاء والخلان والوالدة والوالد ... إنه إهداء الجزائر.

---

[127]- المصدر السابق ، ص 59.
[128] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 60-61.
[129] - المصدر السابق ، ص 42.

في قصيدة الذبيح الصاعد يظهر بيت كأنه جوهرة ثمينة وسط خيط من اللآلئ العادية. يقول الشاعر:

<< أنا إن مت فالجزائر تحيا حرة مستقلة لن تبيـــدا >>[130]

إن عشق الجزائر في فلسفة الشاعر عشق لا مثيل له، فهي خمرته التي يسكر بها، إن شعره في الجزائر أقرب منه إلى نفس الصوفية إلى نفس الشعراء، إنك تلاحظ فيه عنفوان الشباب وقوة الضمير وجدة الحياة وجيشان العاطفة، وعمق الطرح وثبات المبدأ وأصالة المبدع وشاعرية الفنان.

يقول مفدي زكيا في حب الجزائر من قصيدته القافية :

<< أحبها مثل حب الله أعبدهـا آمنت بالله لا كفر و لا نــزف

أرض الجزائر في إفريقيا قدس رحابها من رحاب الخلد إن صدقوا >>[131]

إن الجزائر شيء مقدس وثمين، شيء له حلاوة العبادة ولذة الإيمان، وإن كان الشاعر يخاف من لوم اللائمين وجدال المغرضين، فهو يبرئ ساحته من كلمة الكفر والشك ويعلن بأنه إنسان مؤمن بالله، لا كفر يعتقده ولا نزق يستولي عليه .

إن الشاعر لا يتوانى ولا يتخاذل في فداء وطنه بروحه وبأعز ما يملك، فإذا كان المؤمن يتقرب إلى الله بالأضحية والقربان، فإن مفدي يتقدم بروحه الطاهرة فداءا لوطنه الغالي.

وليس في هذا الفعل من ولا إدعاء، بل هو أقل القليل وأرخص ما يدفع في سبيل الوطن:

<< روحي وهبتك يا روحي فدى وطني زلفى إلى الله لا من ولا ملـــق

وإن جفاني ذوو القربى فلا عجب إن النبوة في أوطانها خـــــرق

لا زلت أرعى لهم عهدا وإن بقيت مثل المدى من جفاهم في الخشى حرق

سيذكرون إذا الليل رهيب سجـى وجلجل الخطب إني في الدجى فلـق

حسبي وحسب أناسي أن غدوت لهم عودا يعطرهم ذكري وأحتـــرق ! >>[132]

لقد استحوذ حب الوطن على الشاعر كلية، فرغم أن الشاعر لاقى من بني جلدته أذى كثيرا وعسفا وظلما ونكران جميل، إلا أن الشاعر يصفح عنهم ويتجاهل ويتغافل ويردد في حكمة رائعة : إن النبوة في أوطانها خرق، وهذا يذكرنا بالحكمة القائلة " لا نبي بين قومه "

ومع هذا فهو يشفع لهم ويغفر، ويصفح ويعفو، بل يرعى لهم عهودا وإن كانت عهودهم معه أحد من المدية، وهي حديدة قاطعة باترة، تغرس في أحشائه كل لحظة، فتمزقه شر ممزق ولكن لا بأس، سيأتي عليهم يوم يذكرون قيمته ومنزلته، وهذا بعد أن تدلهم الأوضاع، وتشتد الكروب وتعصف النوازل ويجلجل الخطب، ساعتها يدركون أنه هو الفلق والصبح الذي ينير لهم طريقهم.

إن مفدي زكريا قد اقتبس بيته هذا من بيت أبي فراس الحمداني المشهور:

"سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر"

ولكن هذا لا ينقص من شاعرية مفدي فقد أعطى من نفسه ووطنيته لهذا البيت دفعا آخر وقوة جديدة حتى لتشعر أنه مبتكره الأول.

ويواصل مفدي حديثه عن نفسه وما لاقاه من ضيم ونكران من بني قومه ومع ذلك فهو غير يائس منهم، إنه عود الطيب الذي يحترق هو ليضيء للآخرين، وهذا يذكر بالمثل القائل تحترق الشمعة لتضيء للآخرين. الوطن في شعر مفدي كل لا يتجزأ، إنه رقعة جغرافية واسعة ، فيها الشمال بسحر شواطئه وغاباته، وفيه الجنوب بشساعته وكثرة خيراته ونبل أهله.

وفيه الغرب بأصالته وعمق تاريخه ورجالات عصوره الزاهرة كأبي مدين شعيب الولي الصالح، وفيه الشرق مهد الثورة وقلعة الصمود وكعبة الأحرار، وبهذا يرد مفدي زكريا على إدعاء

---

[130] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 10.

[131] - المصدر السابق ، ص 26.

[132] - المصدر السابق، ص 29.

فرنسا بأن ثورة الجزائر عمل عصابات وقطاع طرق وبعض الخارجين عن القانون، كمت يرد على بعض الجزائريين المتخاذلين الخائرين المشككين في شمولية الثورة .

يقول مفدي :

<< وفي صحرائنا جنات عدن بها تنساب ثروتنا انسيابا

وفي صحرائنا تبر وتمـر كلا الذهبين راق بها و طابا >>[133]

عاش مفدي للوطن قلبا وقالبا، فكرا وروحا شعرا ونضالا، بل إن إلياذة الجزائر وهي قصيدته المطولة الأولى والتي بلغت أبياتها ألف بيت وبيتا دليل ناطق وبرهان صادق على وطنية الرجل، فقد سجل فيها تاريخ الجزائر كله من عهود ما قبل التاريخ وإلى ما بعد الاستقلال. والغريب أن إلياذة الجزائر والتي فيها مائة مقطع، كل مقطع بعشرة أبيات، توسط المقطع الخاص بثورة أول نوفمبر عدد الأبيات، فكان ترتيبه واحدا وخمسين. أليس هذا غريبا حقا، إذ توسطت ثورة أول نوفمبر تاريخ الجزائر القديم والحديث إنه فعلا واسطة العقد.

وطن مفدي زكريا وطن متمرد، متمرد على الأوضاع المزرية، متمرد على المعتقلات والمحتشدات، متمرد على الطغاة المستبدين، والمستعمرين الظالمين، والخونة الماكرين.

ومن تمعن قصيدة: "وتعطلت لغة الكلام" الميمية، يدرك حجم التمرد الذي صاغه الشاعر في أبيات طافحة بالتحدي لافحة بالشواض، محرقة لكل خائن وجبان.

يقول مفدي :

<< نطق الرصاص فما يباح كـــلام وجرى القصاص فما يتاح ملام

وقضى الزمان فلا مرد لحكمـــه وجرى القضاء وتمت الأحكـام >>[134]

الرصاص، القصاص، القضاء، الأحكام... أليست هذه الكلمات المفتاحية عنوانا للتمرد وأنت تقرأ هذه القصيدة تدرك بجلاء الاندماج الكلي للشاعر في قصيدة "فتح عمورية" الشهيرة للشاعر الحكيم أبي تمام والذي استهلها بقوله :

السيف أصدق إنباء من الكتـــب في حدة الحد بين الجد واللعـب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريـــب

والعلم في شهب الأرماح لامعـــة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

قارن ما قاله أبو تمام بما قاله مفدي في قصيدته الميمية

<< السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهام >>[135]

الجزائر المتمردة في عرف الشاعر وفلسفته غيرت مجرى الكون، وعلمت العالم نزعة التمرد ضد الظلم والحيف والجور.

يقول مفدي :

<< ما للجزائر ترجف الدنيا لهـا والكون يقعد حولها و يقـــام

ما للقيامة في الجزائر أرعـدت فغدا لها في الخافقين غمـــام

لا تعجبوا فالدهر سجـل دورة ما للخطوب على الشعـوب دوام

و الزرع أخرج في الجزائر شطأة فمضى و هب إلى الحصاد كرام >>[136]

تمرد الجزائر رجفت له الدنيا، والكون قائم وقاعد من هوله، بل إن تمردها وانتصار الحق، وزرع الجزائر أنبت واستوى وحان وقت الحصاد، إنه حصاد الاستقلال و الحرية.

والملاحظ هو قدرة الشاعر على استيفاء عناصر لصورة الفنية سيما المقتبسة من القرآن الكريم، ففي هذه الأبيات يحيلنا الشاعر إلى صورة محمد -صلى الله عليه وسلم- عندما تتحدث عن أوصاف الصحابة الكرام، حيث يقول الله تعالى:" ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار".

---

[133] - مفدي زكريا،اللهب المقدس، ص 33.

[134] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 42.

[135] - المصدر السابق، ص 43.

[136] - المصدر السابق ، ص44.

إن صورة الصحابة في معرض الحديث عن فضلهم وثباتهم على دينهم وتضحيتهم في سبيل الله وكذلك أبناء الجزائر في رسوخ مبدئهم وتماسك صفوفهم، وقوة شكيمتهم، وصلابة عزيمتهم و مضاء فتوتهم. إنهم جيل متعطش للحرية عاشق للكرامة، واهب أعز ما يملك للوطن.

د- المضمون الثوري:

لو صح أن يعرف مفدي زكريا بقول موجز لعرف: الثورة ولذلك لم يخطيء من وصفوه بأنه شاعر الثورة إذ صخر شعره للثورة المظفرة تأريخا وتأصيلا وعاطفة ومبدأ ودعوة. لقد امتزج الشاعر بالثورة امتزاجا كليا، فسرت نيرانها إلى أحشائه قبل أن تسيل من قلمه. ومن يتصفح إنتاجه الأدبي والشعري يدرك أن الرجل كان ثوريا بأتم معنى الكلمة ولعل هذا مرده إلى بشاعة الاستعمار وهمجيته وتنكيله الفظيع بالجزائريين ذكورا وإناثا كبارا وصغارا وحتى الشاعر أصلي من جحيم التعذيب ما لا يوصف.

أنظر إليه في بعض عناوين قصائده ذات الملمح الثوري: الذبيح الصاعد، زنزانة العذاب، حروفها حمراء، أنا ثائر، وتكلم الرشاش جل جلاله، المارد الأسمر، إلى الذين تمردوا أذكروا الثورة في أقسامكم، سنثأر للشعب يوم الخلاص، إنها عناوين مثيرة، ثائرة، هائجة مندفعة، ذات شرر متطاير، وأشلاء مبعثرة في الجو.

إن الثورة في شعر مفدي عنوان حياة، وترجمان شعب ووسام شرف، اسمع إليه وهو يقول :

<< وقال الله كن يا شعب حربـا: على من ظل لا يرعى جنابا
وقال الشعب كن يا رب عونا على من بات لا يخش عقابا
فكان و كان من شعب و رب قرار أحدث العجب العجابا >>[137]

· إن الثورة في شعر مفدي ثورة مقدسة، ذات مبادئ سامية، مستمدة من العقيدة والإيمان. فلا تصح عبادة أو طاعة دون جهاد وثورة في سبيل الله والوطن، إن لغة الرصاص والسلاح هي اللغة الوحيدة التي تقنع الاستعمار وترغمه وتجعله يعترف بالحق المشروع للشعوب المستضعفة.

<< وحرب للكرامة في بـــلاد مضت تفتك عزتها غلابـا
وأوفدت الرصاص ينوب عنها يناقش غاصب الحق الحسابا >>[138]

وهذا أسلوب تهكمي فيه سخرية مريرة واستهزاء بالاستعمار، ذلك أن المفاوضين للمستعمر ليسوا بشرا من لحم ودم، يمكن لفرنسا أن تخدعهم أو تراوغهم وإنهم مفاوضون من نوع خاص. إنهم الرصاص الذي لا يقبل التردد ولا يمكن أن يخادع.

ومن مميزات الثورة في شعر مفدي زكريا سموها الإنساني، فالشاعر لا يتحدث عن ثورة تحرير الإنسان الجزائري فقط، وإنما يود تحرير الإنسان كإنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه أو لسانه أو ديانته.

قال مفدي:

<< جهاد دوخ الدنيا وألقـــى هنالك في سياستها اضطرابا >>[139]

إنه جهاد عالمي ضد الظلم في كل بقاع الأرض، وكم كان الشاعر ذكيا في استعماله الظرف هنالك ويعني به الأمم المتحدة والتي كانت منحازة لفرنسا.

ومن خصائص الثورة كذلك، الالتفاف الشعبي الكبير حولها، فهي ليست ثورة طبقة أو شريحة أو نظام أو عصابة أو فلاقة كما كانت تسمي فرنسا، إنها تمرد عام شامل، تمرد في الشمال والجنوب، في الشرق والغرب، في الريف والمدينة والقرية، تمرد الرجال والنساء الشيوخ والأطفال، تمرد وطن.

قال مفدي :

<< و هزت ثورة التحرير شعبا فهب الشعب ينصب انصبابا >>[140]

---

[137] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 32.
[138] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص 32.
[139] - المصدر السابق، ص 32.

ألست ترى الحقيقة ناصعة : تمرد شعب و ثورة أمة.

هـ- **المضمون الإيديولوجي** : الإديولوجيا مصطلح جديد، يعني باختصار العقيدة السياسية والمذهب الحزبي الذي ينتمي إليه شخص ما، وقد يكون هذا المصطلح غريبا عن عالم الشعراء والأدباء، لأنهم أناس متمردون بطبعهم، عاشقون للحرية، تواقون للانطلاق، ماقتون للقيود والأغلال، إلا أن استقراء التاريخ يثبت عكس ذلك، فكم من شعراء كبار وكتاب أفذاذ كان يصدرون عن إيديولوجية متمكنة أضحت عقيدة متمكنة تشربتها أنفسهم ومنهم من مات في سبيلها، فهؤلاء شعراء الخوارج في العصر الأموي يتخذون الإيديولوجيا عقيدة ينافحون عنها بل ويستشهدون وعلى رأسهم الشاعر الكبير عمران بن حطان، وكالشيعة وعلى رأسهم الكميت بن زيد والطرماح بن حكيم من الشيعة، و كالأخطل من الحزب الأموي، والقائمة طويلة وعريضة.

ومفدي زكريا واحد من أصحاب الإيدولوجيات الثابتة، إيديولوجيا نابعة من إيمانه بضرورة التغيير، تغيير الوضع، وهذا ما دفعه إلى الانضمام للعمل السياسي والوطني منذ أوائل الثلاثينات، فقد كان مناضلا نشيطا في حزب نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية وأخيرا في حزب جبهة التحرير الوطني.

وبسبب إيديولوجيته وآرائه التحررية الثورية دخل السجن خمس مرات ابتداءا من سنة 1937 م و انتهاءا بسنة 1959م.

والحقيقة أن الظروف السياسية للجزائر هي التي حتمت عليه هذه الإيديولوجية.

يقول مفدي مفتخرا بإيديولوجيته :

<< ونلهم ثورتنا مبتغانـــا فتلهم ثورتنا العالمينـــا >>[141]

ولا أعتقد أن مفدي كان يتحزب سياسيا لو لم يكن مجبرا على تقمص ذلك الواقع الذي فرضته الظروف والأحداث. إن الشعر والأدب لا يسير بمعزل عن السياسة والإيديولوجيا فالتمرد الإيديولوجي شيء اضطراري فرضه الواقع والحنكة السياسية وظروف البلد، وهذا لا ينقص أبدا من شاعرية مفدي أو صدق إحساسه وثبات مبدئه .

---

[140] - المصدر السابق، ص 31.

[141]- مفدي زكريا ، إلياذة الجزائر، موفم ، الجزائر 1987، ص 70.

خـــاتمـــة

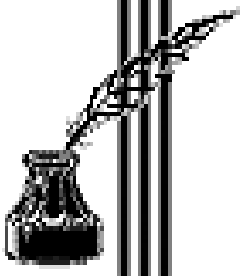

خاتمة :

ونحن نسدل الستار في هذه الدراسة على ظاهرة التمرد في شعر مفدي زكريا، وبخاصة في ديوانه "اللهب المقدس"، يمكننا أن نخرج بجملة من النتائج والملاحظات، ترشحنا أن نقول :

أولا : إن مفدي زكريا نموذج صالح لإجراء دراسات أدبية و نقدية حول شخصيته وشعره.

ثانيا : إن ظاهرة التمرد في شعره حقيقة ثابتة لا مراء فيها، بل لعلها أبرز سمة تميز شعره، بل قل حياته.

ثالثا :مؤشرات ظاهرة التمرد كثيرة أبرزها: الفكر الإيديولوجي الثوري المتمرد الذي تربى عليه الشاعر، كثرة الاعتقالات والسجون التي لسعت حياة الشاعر، وكذا ما يلاحظ في اندفاعية الشاعر وصرخاته المدوية في شعره .

رابعا : صدق مفدي زكريا في عاطفته ووطنيته ، فهو إنسان وطني غيور، حساس، يعتبر نفسه و شعره خادمين لأمته.

خامسا : براعة الإستهلال في قصائد الشاعر أو ما يسمى بشعرية المطالع دليل فني على نزعة التمرد في قصائده.

سادسا : فخامة الأسلوب، وجزالة الألفاظ وبراعة التصوير وخصوبة الخيال وجيشان العاطفة كلها مظاهر جلية نزعة التمرد.

سابعا : التركيز على بحور: الطويل، البسيط،الكامل، الخفيف، الرمل، الوافر، يعني تفضيل وإيثار التجدد على السكون والقوة على الهدوء والاندفاع على الفتور، وهذا من مظاهر التمرد.

ثامنا : الأناشيد المتنوعة ولاسيما نشيد قسما بذور حقيقية في تربة التمرد التي أرادها الشاعر دفاقة بالصمود، هائجة مائجة.

تاسعا : تفشي ظاهرة التمرد في مختلف الأغراض الشعرية يوحي بأن الشاعر يقصدها قصدا ولم تأت عفوية.

وفي الأخير ما قمنا به في هذا البحث من محاولة استجلاء ظاهرة التمرد في شعر مفدي زكريا ما هي إلا حلقة بسيطة توضع في حلقات البحث إنتاج هذا الشاعر.

قائمة المصادر

قائمة المصادر و المراجع :

المصادر :

- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث عشر، دار صادر، بيروت ،(د-ت).
- أحمد رضا، متن اللغة، المعجم الخامس، مكتبة الحياة، لبنان، (د-ط).1966.
- الخليل بن أحمد الفراهدي، كتاب العين، المجلد الرابع، دار لكتاب العلمية، بيروت ،(ط1) 2003
- مفدي زكريا، اللهب المقدس، نشر وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، (ط2) الجزائر، 1973.
- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1987 .

المراجع :

- أحمد الطريسي، النص الشعري: بين الرؤية البيانية والرؤية الاشارية، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر، القاهرة ،(د.ط)،2004 .

- أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، (ط7) 1982.
- جابر عصفور، النقد الأدبي، ج2: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار الكتاب المصري، القاهرة / دار الكتاب اللبناني، بيروت، (ط1)، 2003
- جون كروشانك، ترجمة وتعليق جلال العشري، ألبير كامي، وأدب التمرد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976 م.
- حواس بري، شعر مفدي زكريا، دراسة وتقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر .1994م.
- خليل أبو جهجة، الحداثة الشعرية العربية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1995،1م
- زيدان عبد القادر عبد الحميد، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء الإسكندرية، (ط1)،2003م
- محمد أحمد العزب: ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، أطروحة دكتوراه جامعة الإسكندرية.
- محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، دار النهضة العربية بيروت (د-ط)،1986م.
- محمد يحياتن، مفهوم التمرد عند ألبير كامو، وموقفه من الثورة الجزائرية، ديوان المطبوعات، بيروت(د-ط) 1986م.
- محمود عبد الله محمد خوالدة ، علم نفس الإرهاب، دار الشروق ، عمان ، بط 1 2005.
- مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، (د-ط)، (د-ت).
- عبد الحكيم بليح، حركة التجديد في شعر المهجريين بين النظرية والتطبيق، دار صادر بيروت.
- عز الدين اسماعيل، الشعر في إطار العصر الثوري، دار القلم، بيروت، 1974م.
- سعيد الورقي، لغة الشعر الحديث: مقوماتها وطاقاتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية (د-ط)، 2005م.
- سول شير لنجر، التحليل النفسي والسلوك الاجتماعي، ترجمة د.سامي محمود علي، دار المعارف، القاهرة.
- سيد قطب، النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت/ القاهرة .(ط-د) .1983 م
- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا رسالة ماجستير، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر، (ط-1)، 1987م.

فهرس

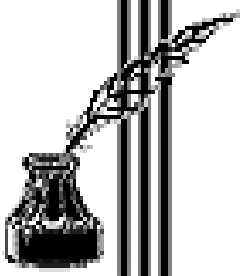

فهرس الموضوعات

مقدمة.....ا

تمهيد: تجربة مفدي زكرياء الشعرية.....5

الفصل الأول: ماهية التمرد

I-مفهوم التمرد.....12

أ-المفهوم اللغوي.....**12**

ب-المفهوم الاصطلاحي.....**13**

II-أشكال التمرد.....16

ا-التمرد القيمي.....**16**

ب-التمرد على المستوى الفني.....**18**

III-علاقة التمرد بالاغتراب الروحي.....22

أ-التمرد والغربة عند الفلاسفة.....**22**

ب-التمرد والغربة في البيئة الجاهلية.....**24**

ج-التمرد والغربة عند الشعراء الرومانسيون.....**25**

الفصل الثاني :تجليات التمرد في ديوان اللهب المقدس

I-الأشكال الفنية وتجربة التمرد.....28

II-التقنيات الفنية.....37

أ-اللغة الشعرية(المعاجم والألفاظ).....37

ب-الصورة الفنية.....41

ج-الموسيقى الفنية.....45

III-قراءة في المضامين الفكرية لمفدي زكرياء.....50

خاتمة.....63